الباب الأول

مَعْرِفَةُ اللَّه جلّ جلاله

وفيه فصلان:

الفصل الأول: الإيمان بالله تعالى

الفصل الثاني: صفات الكمال لله تعالى

obeikandl.com

الفصل الأول

الإيمان بالله تعالى

١ . وجود الخالق حقيقة ثابتة، والشعور به أمر فطري في الأنفس:

أول شعور يشرق في أعماق الإنسان، إذا تأمل في نفسه وفي الكون من حوله، شعوره بوجود خالق عظيم مُهَيْمِن على الكون، يمنحه التدبير والتنظيم، ويتصرف فيه بالحياة والموت، والبناء والفناء، والتغير والتطور، والحركة والسكون، وجميع أنواع التغييرات الحكيمة التي تجري فيه.

إن الإنسان ليشعر بهذه الحقيقة، ويؤمن بها إيماناً عميقاً، سواء استطاع أن يقيم الدليل البرهاني على صدق هذا الشعور، أو لم يستطع، فدليل الفطرة، ودليل البداهة، شاهد حق يسبق الشواهد النظرية، وقد يكون أدق منها وأصدق.

وحسب الإنسان في إيمانه واعتقاده بشيء ما أن يوافق شعورُه الفطري، وإحساسه البديهي، النتائجَ النظرية التي يتوصل إليها الباحثون من علماء وفلاسفة، أو أن يتفق شعوره وإحساسه، مع الشعور والإحساس الصادق للكثرة الكاثرة من المجموعة الإنسانية.

obeikandl.com

بل ربما يقال: إن سلامة الفطرة، وصفاء الإحساس الخفي، من أهم الوسائل الأساسية في شعور الإنسان بكثير من البديهيات؛ واكتسابه كثيراً من المعارف الحقة، التي يعرفها الإنسان في أطوار حياته، وهذا ما أسميناه في مبحث «أهمية العقيدة وثبوتها»: (بمسلك الإضاءة الفطرية والإشراق الروحي).

وإذا قلنا: إن الشعور الفطري في الإنسان بوجود خالق عظيم مُهَيْمِن على الكون مُبْدِع عالم حكيم، من الدلائل الصادقة على وجود الخالق، فلنا على ذلك أمثلة كثيرة من واقع حياة الإنسان في تكوينه الفطري، حيث يوافق شعوره الفطري ما هو كائن فعلاً، أو ما يجب أن يكون، بشكل لا يقبل الزيادة عليه، أو النقصان منه، بأي مقدار قلّ أو كثر، مهما تقدمت البحوث العلمية، والكشوف التجريبية.

إن كثيراً من علومنا ومعارفنا، ليس لها دليل في أنفسنا غير شعورنا الفطري بها، ومهما تقدمت العلوم والمكتشفات، فإنها لا تزيدنا عنها شيئاً غير ما توصلنا إليه بفطرتنا. فمن أمثلة ذلك: انسياق الطفل حديث الولادة بفطرته الأولى إلى ارتضاع ثدي أمه، دون أن يتعلم ذلك من معلم، ودون أن يدركه بدليل عقلي، أو حسٍّ ظاهر. والأم تشعر بعاطفة الأمومة، سواء علمت أن السرّ في ذلك حفظ الطفل بالرعاية والتربية حتى يصبح قادراً على الاستقلال بنفسه، أو لم تعلم.

كما أننا جميعاً مسوقون بإحساس الفطرة والغريزة إلى مطالب عيشنا، ولو لم ندرك الغرض من وراء هذا الإحساس.

إننا نحس بالجوع فنأكل، سواء علمنا أن الأكل وسيلة من وسائل حياتنا، أو لم نعلم. ونحس بالبرد فنتخذ الوقاية منه، سواء عرفنا أن البرد عامل من عوامل الهدم في بناء جسدنا، أو لم نعرف. ونحس بالشهوة للحموض مثلاً، دون أن نعلم بأنها ضرورية لجسمنا، لتحلل المواد الكلسية وغيرها من المعادن في الأطعمة، كي تتمثل في أجسامنا تمثلاً صحيحاً.

ونشعر بوجود روح فينا (أو سرّ حياتنا)، فندافع عنها، ونحرص على بقائها، دون أن نحس بها بإحدى حواسنا الظاهرة، وقد لا يستطيع الكثير من الناس أن يقيم البرهان على وجودها، وعلى الرغم من ذلك فهو يشعر بها، ويعتقد بوجودها.

ثم ألسنا نشعر في داخلنا بالعواطف والوجدانيات: كالحب والبغض، والرغبة والكراهية؟! فما الدليل على وجودها فينا وهي متغلغلة في داخلنا؟! هل نستطيع أن نقيم عليها دليلاً أكثر من أننا نشعر بها، وهي حق لا شك فيه؟! إننا نشعر بالشهوة، ونشعر بالألم، فهل نستطيع أن نثبت ذلك بأكثر من أننا نشعر به؟! إن الشعور بها دليل على وجودها، ولكن كيف هي موجودة؟ هنا نحاول أن نبحث! هذه بعض أمثلة، وهناك أمثلة أخرى غيرها لا تكاد تستقصى.

مما لا شك فيه أن هذه الفطر، وهذه الإحساسات العميقة فينا، لم توجد فينا عبثاً، بل هي فطر صادقة موافقة للواقع الكوني، وموافقة لحاجاتنا. ومهما تقدم العلم فلن يستطيع الغض من أمر هذه الفطر، ولن يستطيع إهمالها أو الاستعاضة عنها إلا قليلاً، ما لم تكن

الفطرة في الإنسان شاذة أو مريضة، والمريض الشاذ يجب علاجه.

ومن هذه الإحساسات الفطرية الصادقة فينا، إحساس الإنسان بوجود الخالق، وتلهفه دائماً لمعونته وإمداداته، وشعوره بحاجة هذا الكون الكبير ـ في نظامه وإتقانه، وما فيه من إبداع، وحياة وموت ـ إلى قدرته وعلمه وحكمته سبحانه.

إنه شعور فطري تشترك بالإحساس به جميع الخلائق المدركة؛ على اختلاف نزعاتها، ومستويات ثقافتها: في البيئات البدائية، وفي المدن المتحضرة، وفي منتديات المثقفين، وفي قاعات العلوم والفنون والمختبرات.

إنه شعور مشترك بين جميع الناس: يقوم في نفس الطفل الصغير، والإنسان البدائي، والإنسان المتحضر، والجاهل والعالم، والباحث والفيلسوف، والعبقري والمُفِنّ، والخبير في المعمل. كل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك أن الله حق، وأنّه القويّ القابض على ناصية كل شيء، العالم بكل شيء، الحكيم المريد، لا شك فيه.

هذه هي صبغة الله في كل مخلوق مدرك، وفطرته التي فطر الناس عليها. وفي الإشارة لهذه الحقيقة عن الله، قال الله تعالى في القرآن الكريم ـ حكاية عن الرسل ـ في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وإعلاناً عن هذه الفطرة القائمة في الأنفس المدركة، قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ وقال الله تعالى في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ

لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾.

إنها فطرة لا تنطمس إلّا في نفس مَنْ بالغ في الانحراف من الناس بدافع لا أخلاقي؛ ليُرْضِي شيئاً في نفسه، فغشَّى على مرآة فطرته الصافية، وشد عصائب الجهل والعناد على حسه المضيء. وهكذا فقد تُظْلِم مرآة الفطرة في الإنسان، بدخان نار الشهوات، وبعض الغرائز النفسية العاتية المستكبرة، أو بسُحُب الشكوك المادية، فتختفي عنها بعض الحقائق الظاهره في الكون.

وعند ذلك تدعو الضرورة إلى إقامة الأدلة النظرية، ليُزَال بها عن طريق العقل الظاهر، ما غُشِّي على مرآة الفطرة بظلمات الشهوات، والغرائز النفسية، والشكوك المادية. ونستطيع أن نُسمّي هذه العوارض الطارئة على مرآة الفطرة بـ: (أمراض الحاسة الفطرية).

٢ ـ العلم يوصل الى الإيمان بالله، ثم الى الإسلام بكل عقائده ومبادئه:

وإذا تركنا الفطرة ودليلها، كان البحث العلمي ـ بما فيه من استدلال نظري، واختبار وتجربة في المادة وأسرارها وكوامنها ـ هو سبيلنا للتعرف على حقيقة وجود الخالق جل وعلا.

الحقيقة لا تخشى البحث:

إن البحث العلمي المتجرد عن الهوى والتعصب المذموم

والعناد؛ لا بد أن يصل بالباحث إلى الإيمان بالله تعالى، وبصفاته الجليلة، وإلى كل مبدإ قرره الإسلام، وعلمنا به بطريق قاطع.

ولذا فإننا نرى أن الإسلام دفع الناس إلى العلم والمعرفة بإلزام وإلحاح، وقذف بهم إلى دق أبواب المعارف المغلقة، بكل وسيلة معقولة مقبولة، وبكل جرأة وشجاعة وتصميم. وحثَّ كل فكر على البحث والتأمل والنظر، للوصول إلى المعرفة الحقة، ولم يجعل على العقول حجاباً ساتراً، لأنه لا يخشى على عقائده ومبادئه من أي بحث علمي سليم؛ ولأنه على يقين من أن البحث العلمي السليم، والتأمل والنظر السديدين البريئين من الهوى والتعصب الذميم، لا بد أن توصل أصحابها إلى نفس النتائج التي قررها الإسلام، ودعا إليها، ونادى بها في عقائده وبمادئه. فهو مطمئن من جهة أي بحث علمي يستهدف الحقيقة مهما كان نوعه؛ شريطة أن يكون منصفاً، بعيداً عن الهوى والتعصب الذميم، وذلك وفق القاعدة المشهورة بين العلماء: «إن الحقيقة لا تخشى البحث».

الصداقة بين الإسلام وبين البحث العلمي:

وهذا ما يجعلنا نرى الصداقة تامة بين الإسلام وبين البحث العلمي المتجرد المنصف؛ وأنه ليس بينهما أي تنافر أو اختلاف.

وحينما نلاحظ ـ في الظاهر ـ نوعاً من التخالف، بين بعض القضايا المقررة في علوم الإسلام، وبعض القضايا الأخرى المقررة فيما توصل إليه البحث العلمي، فذلك لا يعدو أحد ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إما لأن البحث العلمي لم يصل إلى مرحلة

الحقيقة المقطوع بها في الموضوع الذي يخالف ما هو مقرر في علوم الإسلام؛ وعند ذلك نُسكت الدعوى الناطقة بأن هذا المخالف لما هو مقرر في الإسلام حقيقة علمية مقطوع بها؛ ونقول للبحث العلمي: تابع بحثك لتصل إلى الحقيقة، وستجد نفسك بين يدي الحقيقة المقررة في الإسلام.

الأمر الثاني: وإما لأن المنقول عن الدين الإسلامي ليس منقولاً نقلاً صحيحاً صادقاً؛ وفق المنهج المعتبر علمياً في نقل النصوص، وقد سبق بيان منهج الإسلام في تحقيق ثبوت النص.

الأمر الثالث: وإما لأنه وقع خطأ في تفسير النص الديني المقطوع به من قبل بعض المجتهدين؛ ومعلوم أن الحقائق الدينية الاعتقادية ليست مُلْزَمة بالنتائج المخطئة التي يتوصل إليها ذوو الرأي والاجتهاد والتفسير؛ حسب آرائهم واجتهاداتهم وتفسيراتهم غير اليقينية، ولا بدَّ أن نقول هذه الحقيقة بشجاعة.

أما الحقائق المقطوع بها في الدين، والنتائج التي يتوصل إليها العلم بطرقه اليقينية القاطعة، فإن بينهما تمام التوافق، ولا بد أن يلتقيا على نقطة من الحقيقة واحدة، ذلك لأن الحق لا يتعدد قطعاً في الأمور الاعتقادية، ولا في الكائنات الثابتة.

ومن الخطأ الكبير مقاومة البحث العلمي الإنساني، بل هو مخالف مخالفة صريحة للدعوة القرآنية إلى النظر في ملكوت السمٰوات والأرض، وما خلق الله من شيء. ومن المكابرة التي لا يرضاها الإسلام بحال من الأحوال رفض الحقائق العلمية، لأنها تخالف اجتهاداً لعالم من علماء المسلمين، وهذا الاجتهاد لا يُحَمِّل

الإسلامُ مسؤوليتَه، ولكنّ تبعة الخطأ فيه تكون على صاحب الاجتهاد نفسه.

ولـمّا قام بعض من ينتسبون إلى مناصرة العلوم الدينية، واجتهادات العلماء فيها، ضدّ النظريات العلمية حول الكسوف والخسوف وغيرها، نهض الإمام الغزالي لتصحيح منهجهم في ذلك، فقال في كتابه (تهافت الفلاسفة):

«ومن ظنَّ أنّ المناظرة في إبطال هذا من الدين، فقد جنى على الدين وضعَّف أمره، فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة. فمن يطَّلع عليها ويتحقق أدلّتها إذا قيل له: إنَّ هذا على خلاف الشرع، لم يسترب فيه، وإنما يسترِيب في الشرع، وضرر الشرع ممّن ينصره لا بطريقه، أكثر من ضرره ممّن يطعن فيه، وهو كما قيل: عدوٌّ عاقل خير من صديق جاهل» ا هـ.

سعة صدر الإسلام للنقاش المنصف البريء:

ولما كانت عقيدة الإسلام ومبادئه في جانب الحقيقة، فإننا نرى الإسلام واسع الصدر لكل نقاش منصف بريء من الهوى والتعصب، يتقبل أيَّ نقاش متجرد يستهدف الحقيقة، كما يتقبل كل تأمل ونظر ومقارنة. ولذا فقد طلب من المسلمين أن يكونوا في نقاشهم وجدالهم بالحق متحلين بسعة الصدر؛ ورحابة النقاش، وعلَّمهم ما يلي:

أولاً: أن يبحثوا بتجرد ويقولوا للخصوم كما جاء في سورة سبأ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ثانياً: أن يجادلوا بالتي هي أحسن إذا ألجأهم الأمر إلى الجدل. قال تعالى يعلّم رسوله في سورة النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

وذمَّ الجهلة الذين يجادلون بالباطل من غير علم. قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾.

البحث العلمي يوصل إلى الإيمان بالله:

والنتيجة الحتمية للبحث العلمي المنصف في ظاهرة الوجود الكوني؛ أن يصل الباحثون إلى حقيقة الإيمان بالله تعالى، وعظيم صفاته، وأن يشهدوا بذلك إذا كانوا متجردين منصفين. وهذا ما أعلنه القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

ومتى وصلوا إلى هذا الإيمان، وتحققوا من هذه المعرفة، فلا بد أن يكونوا أكثر الناس خشية لله تعالى. قال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ فالعلماء هم الذين يصلون ببحثهم وعلمهم إلى المعرفة الحقة، ومع المعرفة الحقة تكون بواعث الخشية. ولذا مجّد الإسلام العلماء والباحثين، ومن النصوص الكثيرة في ذلك قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾. وقوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ ونهى عن اتباع ما لا علم للإنسان به. قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾.

العالم المادي متى تجاوز في تفكيره حدود ظواهر المادة، وصل حتماً إلى الإيمان:

وإنه متى سمح العالم المادي الناظر في الطبيعة لنفسه أن تتجاوز حدود ظواهر المادة؛ وبدأ يتساءل عن تفسير لها وتعليل، وبدأ يفكر في غاياتها بتأمل وإمعان، وبدأ يبحث في النظام الجامع لها، وفي قوانينها الثابتة، فإنه لا بد أن يصل حتماً إلى الإيمان بوجود الخالق جلّ وعلا.

أما إذا حجز نفسه في حدود ظواهر المادة فقط، ومنع فكره من أن يجول في التفسير والتعليل والغاية، فإننا قد لا نرى في نفسه أثراً للتأملات الكبرى، ولكن نشهد شهادة حق أنه عطّل في فكره زاوية بحث كبرى، ورضي لنفسه بالجهل الكامل من هذه الناحية، معرضاً عن الحقيقة، مستهيناً بأمرها، مشغولاً بما يقدم للجسد مطالبه.

وهذا الفريق من العلماء الماديين الواقفين عند حدود المادة؛

هم الذين عناهم القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة الروم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

ولكننا نلاحظ أن الغالبية العظمى من العلماء ـ بما فيهم الباحثون الماديون ـ ما يفتأ الشوق للمعرفة فيهم ـ وهو أصل من أصول الفطرة الفكرية في الإنسان ـ ما يفتأ يلح عليهم بالبحث وتجاوز ظواهر المادة، ثم لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام حقيقة وجود الله تعالى؛ مهما حاولوا التهرب منها.

ولذلك ما نزال نطالع أقوال العلماء الكونيين، وأقوال الفلاسفة الباحثين، واعترافاتهم، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم الفكرية، فنلاحظ فيها اعترافاتهم الخاشعة بالخالق الواحد جلّ وعلا. إنها حقيقة وجود الله المنبثّة دلائلها في كل شيء.

٣ ـ دلائل وجود الخالق سبحانه منبثة في كل شيء:

لقد بث الخالق دلائل وجوده في كل شيء من الكون، فكلما تأمل العقلاء في هذا الكون الكبير، المتدفق حكمة وإبداعاً، تجدد لهم في كل تأمل جديد برهان جديد يشير إلى الخالق العظيم.

فالساذج من الناس: ينكشف له من الدلائل على وجود الخالق، والبراهين على وحدانيته وعظمته، دلائل تتناسب مع مستوى تفكيره وثقافته. والذكي: يزيد في التأمل، فيصل إلى نفس الحقيقة، ولكن بدلائل أكثر وأدق وأعمق. والفيلسوف الباحث: تضطره الحقيقة بعد البحث والتأمل، أن يعلن وجود الخالق المبدع، بمستوى من الأدلة أكثر عمقاً، وأدق فلسفة وغوصاً إلى أعماق أسرار الأشياء.

والعالم التجريبي: ينكشف له في كل تجربة صادقة، دليل جديد على ارتباط المادة بسبب أولي فعَّال عليم مريد قادر؛ وهو الخالق سبحانه. والعبقري: لا بد أن يصادف في مجال عبقريته مئات الأدلة التي تجعله يذعن في قرارة نفسه بوجود الخالق العظيم. والفطري: بفطرته الصافية ووجدانه السليم، يتحسس ببساطة لا تعقيد فيها، فيشعر بأن لهذا الكون خالقاً كبيراً فيؤمن به. فسبحان الخالق الذي جعل كل شيء في الكون يشير إلى وجوده وكمال صفاته!!

ولو أخذنا أفراد البشر منذ نشأة الإنسان حتى عصرنا هذا، لوجدنا أنه ما من إنسان استطاع أن يعيش وهو عاقل مدرك منصف؛ ثم يموت دون أن يعتقد بخالق ذي قوة مهيمنة على الكون تسيّره وتدبّر أمره، وإن تنازعته الشكوك والتساؤلات في فترة من حياته. فكبار علماء الدنيا وفلاسفة الكون في عصور التاريخ على اختلافها، يعتقدون بوجود الخالق سبحانه. وإليك طائفة من أقوالهم واعترافاتهم:

٤ ـ من أقوال علماء الكون والفلاسفة في الإيمان بوجود الخالق:

وإليك بعض ما يؤنسك عن هذه الحقيقة التي عرضناها لك، من أقوال العلماء والفلاسفة في العالم، لعلها تنفعك في المحاجَّة، وإن لم تزدك إيماناً بربك.

إن أقوال علماء الكون وفلاسفته، التي يعلنون فيها وجود الله الخالق المدبر الحكيم كثيرة، وهنا ننقل إليك طائفة منها:

جاء في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» ثلاثون مقالاً لثلاثين من كبار العلماء الأميركيين في الاختصاصات العلمية المختلفة من علوم الكون السائدة في العصر الحديث.

وقد أثبت هؤلاء العلماء في مقالاتهم هذه وجود الله جل وعلا، عن طريق ما وعوه من الأدلة الكثيرة، المنبثة في مجالات اختصاصاتهم العلمية.

وهو كتاب حَسَنٌ في بابه، لأنه يُطْلِعُ القارىء على نوع من الأدلة الكونيّة؛ التي تفرض سلطانها على العلماء الماديين، من خلال ملاحظاتهم وتجاربهم واختباراتهم العلمية، فتقول لهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟! [إبراهيم: 10] فيقولون بتجرد وإنصاف وخشوع: آمنا بالله ربنا العليم الحكيم القدوس، خالق كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

كما يجد القارىء في الكتاب الرد الكافي على مروِّجي الإلحاد، الذين يزعمون أن العلوم تبعد عن الإيمان بالله، وأن العلماء الكونيين ملحدون.

إن هذه الدعوى خرافة يتلمظ بها مفترون دساسون مغرضون، فالعلم مؤمن ويدعو إلى الإيمان والمعرفة، ولكن الجاحد هو الهوى والغرض الجانح، وهما اللذان يدعوان إلى الإلحاد والجهل، وطمس البصائر عن الحق، فراراً من ملاحظة عدل الله فيما يأمر به من خير، وما ينهى عنه من شر.

الأقوال:

وإليك بعض مقتطفات من هذه المقالات، جمعتها لك مع شيء من التصرف.

أ ـ جاء في المقالة الأولى من الكتاب، تحت عنوان (نشأة العالم، هل هو مصادفة أو قصد؟)، كتبها «فرانك ألن» عالم الطبيعة البيولوجية: إذا سلّمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته؟ هناك احتمالات أربعة للإجابة على هذا السؤال:

1 ـ فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهذا ما يتعارض مع ما سلمنا به من أنه موجود.

2 ـ وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وهذا مرفوض بداهة.

3 ـ وإما أن يكون هذا الكون أزلي الوجود ليس لنشأته بداية ـ وهذا الاحتمال يساوي ما يقوله المؤمنون بالله بالنسبة لأزلية الخالق ـ لكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذن حَدَثٌ من الأحداث، ولا يمكن إحالة وجود هذا الحدث المنظَّم البديع إلى المصادفة عقلاً، ولذلك فهذا الاحتمال باطل أيضاً.

4 ـ وإما أن يكون لهذا الكون خالق أزلي أبدعه، وهو الاحتمال الذي تقبله العقول دون اعتراض، وليس يرد على إثبات هذا الاحتمال ما يبطله عقلاً، فوجب الاعتماد عليه.

* * *

ب ـ جاء في المقالة الثانية من الكتاب، تحت عنوان (اختبار شامل) كتبها «روبرت موريس بيدج» عالم الطبيعة، أول من اكتشف الرادار في العالم سنة 1934:

وجدنا أناساً موهوبين يحدثوننا عن الغيب، يقولون إنهم رسل الله، وما حدّثونا به قسمان:

1 ـ قسم يقولون فيه: إن لهذا الكون خالقاً واحداً يجب الإيمان به.

2 ـ وقسم يخبروننا به عن بعض أمور الغيب التي ستحدث.

أما القسم الثاني: فقد وقع كما أخبرونا به بعد مئات السنين، وأيدت الأيام وأثبت التاريخ صدق هذه النبوءات جميعاً، وهي من الأشياء التي عجزت العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً، فدلّ ذلك على صحة رسالتهم، وصدق أخبارهم، ووجب أن نصدقهم فيما أخبرونا به عن الله تعالى وصفاته، وهو القسم الأول، لأن عقولنا لا تمنع منه، بل عندنا من الشعور الداخلي ما يثبته.

ثم قال: (إن الإيمان بوجود الله من الأمور الخاصة التي تنبت في شعور الإنسان وضميره؛ وتنمو في دائرة خبرته الشخصية).

* * *

ج ـ جاء في المقالة الثالثة من الكتاب، تحت عنوان (درس من شجرة الورد) كتبها «ماريت ستانلي كونجدن» عالم طبيعي وفيلسوف، عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية: جاء فيها ما خلاصته:

obeikandl.com

1 ـ إن كثيراً من الأمور التي نسلم بها إنما نعتمد فيها على الاستدلال المنطقي.

2 ـ من أمثلة ذلك: كثير من استنتاجاتنا اليومية في حياتنا العادية: العلوم الفلكية التي ليس بيننا وبينها اتصال مادي مباشر. بحوث الذرة، واستخدام قوانين الكتلة والطاقة في استنباط صفات الذرة وتركيبها وخواصها؛ مع العلم بأن العلماء لم يروا الذرة حتى الآن بطريقة مباشرة، وقد أيدت القنبلة الذرية الأولى، ما وصل إليه العلماء من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها.

ومن هذه الأمثلة وجود الله، فإننا نستطيع أن نصل إلى معرفته عن طريق الاستدلال المنطقي؛ الذي يقوم على تفسير النتائج بنظائرها أو مثيلاتها.

3 ـ برغم أن العلوم لا تؤيد وجود عالم غير مادي تأييداً كاملاً؛ لأن الدائرة التي تعمل فيها تقع في حدود المادة، فإنها لا تستطيع أن تنفي بصورة قاطعة وجود عوالم أخرى غير مادية وراء العالم المادي.

4 ـ نستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الإنسان وذكائه؛ في عالم يفيض بالأمور العقلية، أن نصل إلى وجوب وجود قوة مسيطرة مدبرة، تسيِّر هذا الكون وتدبِّر أمره.

وختم مقاله بما يلي: (إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته. وعندما نقوم ـ نحن

العلماء ـ بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، ـ حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ـ فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار قدرة الله وعظمته. ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفسنا، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خَلق الله وآثار قدرته).

* * *

د ـ جاء في المقالة الرابعة من الكتاب، تحت عنوان (النتيجة الحتمية) كتبها «جون كليفلاند كوثران»، من علماء الكيمياء والرياضيات، رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث:

بدأ مقالته بكلمة «لورد كيلفن»، وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم: (إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله). ثم شرع في مقالته، وهي تتلخص بما يلي:

1 ـ تقسم العوالم إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ العالم المادي.

ب ـ العالم الفكري.

ج ـ العالم الروحي.

2 ـ إن التطورات الهامة التي تمت في جميع العلوم الطبيعية، خلال السنين المئة الأخيرة ـ بما في ذلك الكيمياء ـ قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية في دراسة المادة والطاقة. وعند استخدام

هذه الطريقة تبذل كل الجهود للتخلص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة؛ التي تجعل النتيجة التي نصل إليها راجعة إلى محض المصادفة.

3 ـ أسهب في الأمثلة العلمية عن طريق الكيمياء، التي تثبت أن سلوك أي جزء من أجزاء المادة ـ مهما صغر ـ لا يمكن أن يكون سلوكاً عشوائياً ناجماً عن المصادفة؛ بل كل شيء يسير وفق قانون يهيمن على سلوكه.

4 ـ ثم قال: (فهل يتصور عاقل، أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟! أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها؟! لا شك أن الجواب سوف يكون سلبياً!!

وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية، إذ أن لها بداية.

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم، على أن بداية المادة لم تكن بطيئة ولا تدريجية، بل وجدت بصورة فجائية.

وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه المواد، وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقاً، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان.

فإذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه، أو يحدد القوانين التي يخضع لها، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي، متصف بالعلم والحكمة).

* * *

ه ـ جاء في المقالة الخامسة من الكتاب، تحت عنوان (فلننظر إلى الحقائق دون ميل أو تحيز)، كتبها «ادوارد لوثر كيسيل» أستاذ الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو:

1 ـ أضاف البحث العلمي خلال السنوات الأخيرة أدلة جديدة على وجود الله؛ زيادة على الأدلة الفلسفية التقليدية.

2 ـ لقد عمَّت بلادَنا في السنوات الأخيرة موجة من العودة إلى الدين، ولم تتخطَّ هذه الموجة معاهد العلم لدينا.

ولا شك أن الكشوف العلمية الحديثة، التي تشير إلى ضرورة وجود إلٰه لهذا الكون، قد لعبت دوراً كبيراً في هذه العودة إلى رحاب الله، والاتجاه إليه.

3 ـ يرى البعض أن الاعتقاد في أزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد في وجود إلٰه أزلي.

ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي؛ فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً. ولا يقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية؛ فقد أثبتت ـ فوق ذلك ـ أنه بدأ دفعة واحدة، منذ نحو خمسة

بلايين سنة. والواقع أن الكون لا يزال في عملية انتشار مستمر، تبدأ من مركز نشأته.

4 ـ لو أن المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق؛ بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم، فإنهم سوف يسلِّمون ـ دون شك ـ بوجود الله. وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسر الحقائق؛ فدراسة العلوم بعقل متفتح، سوف تقودنا ـ دون شك ـ إلى إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله.

* * *

و ـ جاء في المقالة السادسة من الكتاب، تحت عنوان (استخدام الأسلوب العلمي)، كتبها «وولتر أوسكار لندبرج» عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية، وعميد معهد هورمل منذ سنة 1919:

1 ـ أَرجعَ هذا العالِم في مقاله فشل بعض العلماء في فهمهم وقبولهم لما تدل عليه المبادىء الأساسية؛ التي تقوم عليها الطريقة العلمية من وجود الله والإيمان به، إلى أسباب لا صلة لها بالبحث العلمي، وخص بالذكر منها سببين اثنين:

الأول: ما تتبعه بعض الجماعات أو المنظمات الإلحادية أو الدولية من سياسة معينة؛ ترمي إلى شيوع الإلحاد، ومحاربة الإيمان بالله، بسبب تعارض عقيدة الإيمان بالله، مع صالح هذه الجماعة أو مبادئها.

الثاني: المعتقدات الفاسدة التي تجعل الناس منذ الطفولة يعتقدون بإله على صورة الإنسان؛ وعندما تنمو العقول بعد ذلك، وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية، فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر، لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير، أو مع منطق مقبول. وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة (ينظر الكاتب من خلال الديانة المسيحية الشائعة المحرَّفة)، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي؛ نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية.

ومِنْ ثَمَّ فلا يحبون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات التي تدور حول وجود الله.

2 ـ وبعد أن نبَّه هذا العالم في مقاله إلى ما سبق، وجّه إلى الاعتماد في الإيمان بالله على أساس روحاني، وأوضح أن الإيمان بالله مصدر للسعادة، لا ينضب في حياة كثير من البشر.

3 ـ ثم قال: (أما المشتغلون بالعلوم الذين يرجون الله، فلديهم متعة كبرى يحصلون عليها كلما وصلوا إلى كشف جديد في ميدان من الميادين؛ إذ أن كلَّ كشف جديد يدعم إيمانهم بالله، ويزيد من إدراكهم وإبصارهم لعظمة الله في هذا الكون).

* * *

ز ـ جاء في المقالة السابعة من الكتاب، تحت عنوان (الأدلة الطبيعية على وجود الله)، كتبها «بول كلير انس ابرسولد» أستاذ الطبيعة الحيوية، ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل أوج

ريدج، وعضو جميعة الأبحاث النووية والطبيعة النووية:

1 ـ بدأ هذا العالم مقاله بكلمة للفيلسوف الإنجليزي «فرانس بيكون» منذ أكثر من ثلاثة قرون:

(إن قليلاً من الفلسفة يقرّب الإنسان من الإلحاد، أما التعمق في الفلسفة فيرده إلى الدين). ثم أيّد كلمة هذا الفيلسوف بالشرح.

2 ـ استدل على وجود الله تعالى بدليل اتفاق الناس في الشعور المشترك بوجوده؛ فقال:

(وقد لمس الناس عامة ـ سواء بطريقة فلسفية عقلية، أو روحانية ـ أن هناك قوة فكرية هائلة، ونظاماً معجزاً في هذا الكون، يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة أو الحوادث العشوائية؛ التي تظهر أحياناً بين الأشياء غير الحية، التي تتحرك أو تسير على غير هدي. ولا شك أن اتجاه الإنسان وتطلُّعه إلى البحث عن عقل أكبر من عقله، وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع، لكي يستعين به على تفسير هذا الكون، يعد في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر، وتدبير أعظم، هي قوة الله وتدبيره).

3 ـ ثم قال: (وبرغم أننا نعجز عن إدراكه إدراكاً كلياً، أو وصفه وصفاً مادياً، فهناك ما لا يحصى من الأدلة المادية على وجوده تعالى، وتدل عظمته في خلقه على أنه: العليم الذي لا نهاية لعلمه، الحكيم الذي لا حدود لحكمته، القوي إلى أقصى حدود القوة...).

* * *

ح ـ جاء في المقالة السادسة عشرة، تحت عنوان (منطق الإيمان) كتبها «جورج هربرت بلونت» أستاذ الفيزياء التطبيقية، وكبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا:

قال:

1 ـ (إنني أؤمن بالله، بل وأكثر من ذلك، إنني أَكِلُ إليه أمري، ففكرة الألوهية بالنسبة إليَّ مجرد قضية فلسفية، بل إن لها في نفسي قيمتها العملية العظمى، وإيماني بالله جزء من صميم حياتي اليومية)!!

2 ـ ثم بعد أن قرر مبدأ الأمور البديهية التي نقبل بها قبول تسليم وإيمان؛ قال: (وكذلك الحال فيما يتعلق بوجود الله، فوجوده تعالى أمر بديهي من الوجهة الفلسفية، والاستدلال بالأشياء على وجود الله ـ كما في الإثبات الهندسي ـ لا يرمي إلى إثبات البديهيات، ولكنه يبدأ بها، فإذا كان هناك اتفاق بين هذه البديهية وبين ما نشاهده من حقائق هذا الكون ونظامه؛ فإن ذلك يُعدُّ في ذاته دليلاً على صحة البديهية التي اخترناها).

3 ـ ثم قسم الأدلة إلى أنواع فقال:

(والأدلة أنواع: منها الأدلة الكونية، ومنها الأدلة التي تقوم على إدراك الحكمة، ثم الأدلة التي تكشف عنها الدراسات الإنسانية.

فالأدلة الكونية: تقوم على أساس أن الكون متغير، وعلى ذلك فإنه لا يمكن أن يكون أبدياً، ولا بد من البحث عن حقيقة أبدية عليا.

أما الأدلة التي تبنى على إدراك الحكمة: فتقوم على أساس أن هناك غرضاً معيناً، أو غاية وراء هذا الكون، ولا بد لذلك من حكيم أو مدبر.

وتكمن الأدلة الإنسانية وراء طبيعة الإنسان الخلقية؛ فالشعور الإنساني في نفوس البشر إنما هو اتجاه إلى مشرِّع أعظم).

4 ـ ناقش وضع الملحدين فقال:

(ويلاحظ أن للملحدين منطقهم، ولكنه منطق سلبي، فهم يقولون: إن وجود الله يستدل عليه بشواهد معيَّنة وليس ببراهين قاطعة، وهذا من وجهة نظرهم يعني: عدم وجوده تعالى. إنهم يردون على الأدلة الكونية بقولهم: إن المادة والطاقة يتحول كل منهما إلى الآخر، بحيث يمكن أن يكون الكون أزلياً. كما أنهم ينكرون النظام في الكون، ويرونه مجرد وهم. وهكذا ينكرون الشعور النفسي بالعدالة، والاتجاه نحو موجّه أعظم.

ومع ذلك لا يستطيعون أن يقيموا دليلاً واحداً على عدم وجود الله. ومن منطقهم أن الأدلة المقدمة لإثبات وجود الله، لا تعتبر كافية من وجهة نظرهم.

وهناك فئة أخرى من الملحدين لا يعترفون بإله لهذا الكون لأنهم لا يرونه، ولكنهم لا ينفون وجود إله في كون أو عالم آخر غير هذا الكون؛ ولا شك أن هذا موقف مائع متضارب، لا يستند إلى أساس سليم.

فإذا قارنا بين الشواهد التي يستدل بها المؤمنون على وجود

الله، وتلك التي يستند إليها الملحدون في إنكار ذاته العلية، لاتَّضحَ لنا أن وجهة نظر الملحد تحتاج إلى تسليم أكثر مما تحتاج إليه وجهة نظر المؤمن؛ وبعبارة أخرى: نجد المؤمن يقيم إيمانه على البصيرة، أما الملحد فيقيم إلحاده على العمى.

وأنا مقتنع أن الإيمان يقوم على العقل، وأن العقل يدعو إلى الإيمان، وإذا كان الإنسان يعجز أحياناً عن مشاهدة الأدلة، فقد يكون ذلك راجعاً إلى عدم قدرته على أن يفتح عينيه).

* * *

ط ـ وهكذا تتسلسل مقالات هؤلاء العلماء الثلاثين من كبار العلماء الماديين المنصفين؛ على هذا الأسلوب العلمي الذي يقررون فيه حقيقة وجود الله تعالى، وهم يعلنون خشوعهم وخضوعهم، بين يدي عظمته وقدرته وحكمته جلّ جلاله، مقتبسين من أدلة الكون التي لا تحصى، ما يقنعهم في إيمانهم بالله تعالى.

وقد عرض بقية أصحاب المقالات الأخرى ـ المثبة في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» ـ أدلتهم على وجود الخالق؛ كُلٌّ ضمن مجال اختصاصه العلمي، معتمدين فيها على الأسس التالية:

1 ـ الكون منظم بأبدع نظام وأدقه، وهو موافق في نظامه للحكمة بأرقى ما يمكن أن تكون، سواء في قوانينه العامة أو في شذوذاته.

2 ـ لا يمكن أن يقبل العقل إحالة هذا النظام البديع إلى المصادفة، فوجب أن يكون منظماً بإرادة منظم ذي قوة لا نهاية لها،

وحكمة لا يوجد أحكم منها، وعلم واسع محيط.

3 ـ إن العلوم الإنسانية تؤيد أن لهذا الكون بداية وأنه قد بدأ بشكل مفاجىء؛ وكل ما له بداية فلا بد أن يكون له مبدىء خالق، لأنه لا يمكن أن يخلق نفسه بنفسه.

4 ـ الخبرة الشخصية لكل إنسان تدلّه على وجود الخالق.

5 ـ لا يمكن أن تكون فكرة وجود الله خاطئة، وهي الفكرة التي يتفق على الشعور بها الناس على اختلافهم.

6 ـ لا يوجد دليل واحد للمنكرين، ولكن لكل مثبت أدلة كثيرة من خلال ملاحظاته الخاصة، مهما يكن مستوى ثقافته، ومدى ذكائه.

* * *

وبعد أن عرضنا الأقوال المؤمنة لجمهرة كبار العلماء الماديين، الذين عاصروا النهضة العلمية الحديثة، ورافقوا تطور العلم إلى أحدث مكتشفاته ومنجزاته ـ وهناك آخرون كثيرون، منبثون في مختلف المدن الكبرى، ومراكز الحضارة والعلم والحديث ـ نقدم إليك نماذج من أقوال بعض العلماء والفلاسفة الكونيين، ممن لهم شهرة كبرى في تاريخ العلوم الكونية، والفلسفة الإنسانية المنطقية.

أ ـ من أقوال «تشاد والْسُنْ»: (إن ما يُطلَب إلى أي إنسان، سواء أكان مؤمناً أم ملحداً، هو أن يبين لنا كيف تستطيع المصادفة أن تخلق هذا الكون)!!

ب ـ من أقوال العالم الطبيعي والكاتب اللامع «أوليفروندل»: (كلما تقدمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف؛ فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله).

ج ـ العلامة «ألبرت أينشتين» صاحب النظرية النسبية ـ وهو حجة في الرياضيات وفي الطبيعيات ـ (مؤمن قوي الإيمان بوجود الله)؛ ومن أقواله: (إن أصحاب العبقريات الدينية في جميع العصور، قد عُرفوا بهذا النوع من الشعور الديني الذي لا ينتمي إلى نحلة؛ ولا يتمثل الله في أمثلة بشرية. إنني لأرى أن أهم وظيفة من وظائف الفن والعلم هي: أن يوقظا هذا الشعور، وأن يستبقياه حيّاً في الذين تهيأوا له).

د ـ من أقوال «سير آرثر أدنجتون»، من أكبر العلماء الرياضيين في العالم: (إن تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم الحديث، وإن الكون أحرى أن يفسر بالنسب الرياضية في عقل عاقل، ولكن الإنسان هو سر الكون الأكبر، وهو الذي يدرك هذه النسب، ويدرك ما بين عقله وعقل الكون من علاقة وثيقة).

هـ ـ قال: «هرشل»، وهو من فلاسفة القرن الثامن عشر: (إنه كلما اتسع نطاق العلوم، تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة؛ وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضة يهيؤون ـ بمساعيهم واكتشافاتهم ـ كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم؛ إعلاءً لكلمة الخالق).

و ـ وانظر إلى ما دُوِّنَ من آراء «لسقراط» ـ عن تلميذه أفلاطون ـ من فلاسفة اليونان القدماء: (هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو الذي

لم يترك فيه شيء للمصادفة، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية، وتلك الغاية متجهة إلى غاية أعلى منها، وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة. من أين نشأ هذا النظام الكامل في تفرعاته؟ المحفوف بالعظمة والجلال من كافة نواحيه! ليس من الممكن أن يحمل ذلك على المصادفة!! فلو أمكننا أن نقول: إنه من تلقاء نفسه، لصح لنا أن نقول: إن ألواح: «بوليكلت» و«زونكريس» حدثت من تلقاء نفسها!

وإذا ما نظرنا إلى أن العناصر التي تحتوي عليها الكائنات كثيرة؛ إلى درجة لا يمكن أن يحصرها العقل، كان من المحال أن نحمل وجود ذلك كله على المصادفة، فلا بد إذن من وجود عقل أعلى، وهو الصانع الوحيد.

لأن الطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع؛ الذي ينفذ حكمه كنفوذ الفكر في الحال، بدون أي خطأ. وهو حاضر غالب ـ أي عالم قادر ـ ومع هذا: فمن المستحيل إدراكه بالحواس، فهو كالشمس التي تمسُّ جميع الأبصار، لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر إليها). انتهى. (من تاريخ التصوف للأستاذ «محمد علي عيني بك»).

ز ـ وقد شرح «لابلاس» دليل الحركة الكونية، وأبان قوة هذا الدليل في حسم الشبهات التي يثيرها الجاحدون فقال: (أمَّا القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية وكثافتها؛ وثبّتت أقطار مداراتها، ونظّمت حركاتها بقوانين بسيطة، ولكنها حكيمة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس، والتوابع حول السيارات بأدق حساب، بحيث إن هذا النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعروه خلل.

هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه، والذي يضمن استمرار واستقرار المجموعة إزاء ما لا يعد ولا يحصى من المخاطر المحتملة؛ لا يمكن أن يحمل على المصادفات ـ في نظر «لابلاس» ـ إلا باحتمال واحد من أربعة تريوليونات، وما أدراك ما أربعة تريوليونات؟! إنه عدد من كلمتين، ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصي إلّا إذا لبث خمسين ألف عام يعدّ الأرقام ليلاً ونهاراً؛ على أن يعد في كل دقيقة 150 عدداً).

ح ـ وقال «سبنسر» ـ وقد عرف عنه أنه غير متدّين ـ: (إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك، وأن الأديان كانت أول من قَبِلَ هذه الحقيقة العلوية ولقنها).

ط ـ كتب «كميل فلامريون» في كتاب «الله يتجلّى في الطبيعة»: (إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات، فإن الله يتجلى لنا كروح دائم موجود في كل شيء.

ليس هو سلطاناً يحكم من فوق السمٰوات، بل نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات.

ليس مقيماً في جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة، بل إن الفضاء اللانهائي مملوء به. فهو موجود مستقر في كل نقطة من الفضاء، وكل لحظة من الزمان، أو أصح: هو قيوم لا نهائي، منزه عن الزمان والمكان، والتسلسل والتعاقب!!

ليس كلامي هذا من جملة عقائد ما وراء الطبيعة المشكوك في

صحتها؛ بل من النتائج القاطعة التي استنبطت من القواعد الثابتة للعلم؛ كنسبية الحركة وقدم القوانين.

إن النظام العام الحاكم في الطبيعة، وآثار الحكمة المشهودة في كل شيء، المنتشرة كنور الفجر، وضياء الشفق في الهيئة العامة، لا سيما الوحدة التي تتجلى في قانون التطور الدائم، تدل على أن القدرة الإلٰهية المطلقة هي الحوافظ المستترة للكون، هي النظام الحقيقي، هي المصدر الأصلي لكافة القوانين الطبيعية، وأشكالها ومظاهرها).

وكميل فلامريون: فيلسوف ينكر اليهودية والنصرانية ولا يعرف الإسلام، ولكنه يعرف الله الواحد من إدمانه النظر في العلوم والأكوان، وأمثاله كثيرون.

وإن كنت ترى في كلامه بعض الأخطاء في صفة الله؛ فذلك لأن فلسفته الفكرية لم تقيدها ضوابط الوحي السماوي.

ي ـ نشرت جريدة المصري القاهرية تلغرافاً أذاعته وكالة (رويتر) على العالم كله؛ جاء فيه: نيويورك ـ ر ـ: استفتت مجلة «كوليرز» المعروفة، عدداً كبيراً من علماء الذرة والفلك وعلم الأحياء «البيولوجيا» والرياضة؛ فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة، تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود، ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حد له.

ويقول الدكتور «راين»: (إنه ثبت من أبحاثه في المعامل؛ أن في الجسم البشري روحاً أو جسماً غير منظور).

وقال عالم آخر: إنه لا يشك في أن الكائن الأعظم ـ وهو ما تسميه الأديان السماوية «الله» ـ هو الذي يسيطر على الطاقة الذرية؛ وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود.

ويقول «أدنجتون»: (إن من وراء هذا الكون عقلاً مدبّراً حكيماً، هذا العقل هو الروح الأعظم، هو الله سبحانه وتعالى).

ويقول «آرثر كومبتون» ـ الحائز على جائزة (نوبل) في الكشوف الذرية ـ: (لست في معملي أعني بإثبات حقيقة الحياة بعد الموت، ولكني أصادف كل يوم قوى عاقلة، تجعلني أحسّ إزاءها أحياناً بأنه يجب عليَّ أن أركع احتراماً لها)!!

اختلاف الناس في ذات الخالق وصفاته بعد الإيمان بوجوده

وبعد أن عرفنا أن العقلاء المنصفين، كلهم قد استووا في الإشارة إلى خالق مدبّر، وفي الإيمان بذي قدرة عظيم مهيمن، نلاحظ أنهم قد اختلفت مداركهم في تصور ذاته وتحديد صفاته.

فمنهم: من استطاع أن يفهم أنه لا بد أن يكون مجرداً عن مشابهة كل ما يدخل في نطاق الحس؛ وأن يكون مجرداً عن كل شيء مادي، أو يسري في المادة، أو تتصف به المادة، وأن يكون واجب الوجود، قائماً بذاته، لا إلٰه إلا هو، لا يحتاج إلى مكان، ولا يجري على ذاته زمان.

وهذه الحقيقة عن ذات الخالق هي الحقيقة التي جاءت الشرائع السماوية؛ لتُروي بها غُلة كل عالم باحث مفكر، وليطَمئِنَ بها كل ذي فطرة صافية طاهرة سليمة، وكل ذي عقل نافذ وقّاد.

ولتصحح بها تصورات المجسِّمين الماديين، والمشركين الذين تنازعتهم الأوهام والتقاليد، واستحوذت عليهم الشياطين فشوهت صفاء فطرتهم. ولتحرر بها العقول البشرية من قيود المحسَّات، وتنطلق بها إلى آفاق التجريد العقلي، حتى يكون الإنسان أهلاً لما كرّمه الخالق به، إذ منحه هذا العقل الذي يستطيع أن يدرك به وجود الخالق، وتنزهه عن مشابهة الحوادث، واتصافه بكل صفة من صفات الكمال.

وكان من هؤلاء الناس الذين آمنوا بوجود الخالق: صنف تخيل ذات الخالق بالمادة، أو بما يشابه الأجساد المادية، أو بالقوى السارية في ذرات المادة، بحسب قصر مداركه، وتقيده بواقعه الذي يحسه في نفسه، أو في الكون من حوله. ولو أن هذا الصنف أصغى بتفهم وتعقل، للمنطق الجلي الواضح الذي نزل به الوحي على الرسل؛ لم يقع بكل هذه التخيلات الباطلة، التي يرفضها العقل بقليل من التأمل والنظر المتجردين المنصفين.

الإلحاد والملحدون

ثم لا نجد الإلحاد إلا عند مغفَّلين مضلَّلين، أو مقلّدين متعصبين، أو مجرمين شهوانيين، أو مستكبرين مغرورين بالنزر اليسير الذي تعلموه من ظواهر الكون؛ فظنوا أنفسهم عرفوا كثيراً، وجهلوا أنهم ما غمسوا بعد أكفهم في شاطىء بحر صغير من بحور علم الكون.

وذلك أنه قد تطغى على الإنسان شهواته وملاذه وأنانيته، فيحاول أن يتهرب من بعض الحقائق التي يشعر بها في قرارة نفسه، إرضاءً لغرائزه وشهواته، التي أخذت صبغة الانحراف والشذوذ، أو

إرضاء لأنانيته في كبره واستعلائه، وحبه للسيطرة والإجرام.

ويصح لنا إذا أمعنا النظر أن نقول: إن الإلحاد بالله وإنكار وجوده ـ بعد وضوح الدلائل، من خلال تأمل الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله ـ ليس إلا تهرباً من الفضيلة والحق والخير والجمال؛ لتبرير أعمال الرذيلة والظلم والقبح، وقلب الحقائق، وإرضاءً للنزوات والغرائز والشهوات الجانحة الجامحة.

هل يستطيع أذكى وأعلى ملحد في الدنيا أن يأتينا بدليل واحد مقنع يدل على عدم وجود الخالق سبحانه؟! إن الملحدين مهما اجتمعوا لذلك فلن يستطيعوا!

ما يضر الملحد لو عقل وأنصف ـ على فرض أنه لم تقم لديه الدلائل القاطعة على وجود الخالق؛ بحد زعمه الفاسد ـ أن يؤمن بقوة ظنية لا يوجد ما يعارضها؛ لا في الظن، ولا في الوهم، فضلاً عن اليقين! وهذه القوة إذا تم الإيمان بها تجعل منه ومن الناس جميعاً سعداء فضلاء، يعيشون عمرهم عيش الرفاهية والنعيم، والطمأنينة النفسية، والمحبة للخير، بينما لا توجد قوة أخرى في الدنيا تستطيع أن تقف في وجه غرائز الإنسان الشاذة المجرمة، وأنانيته الظالمة المستكبرة.

أليس يقوم في ظن الملحدين احتمال صدق دعوة الرسل الذين يكذبونهم؟! وماذا ستكون حجتهم بين يدي الله إذا قال لهم يوم القيامة: كذبتم رسلي، وأعرضتم عن البراهين التي بثثتها في الوجود، الدَّالة على وجودي، والدالة على عدلي، فحق عليكم عقابي؟!

بمثل هذا النوع من الاستدلال ناقش المؤمن من آل فرعون ـ الذي يكتم إيمانه ـ فرعون ومن معه؛ قال تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

إنَّ الملحد ليلحد بالله الحق، ثم تراه يجري وراء أوهام تافهة لا حقيقة لها في الواقع، على توهم أن لديها بعض اللذائذ والشهوات النفسية، أو بعض الإصلاح الفردي أو الاجتماعي.

وفيما كتبه «أندور كونواي إيفي» ـ من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية من سنة 1925 إلى سنة 1946 ـ تحت عنوان (وجود الله حقيقة مطلقة): (ويظهر أنَّ الملحدين أو المنكرين بما لديهم من الشك، لديهم بقعة عمياء أو بقعة مخدرة داخل عقولهم؛ تمنعهم من تصور أن كل هذه العوالم ـ سواء ما كان منها ميتاً أو حياً ـ تصير لا معنى لها بدون الاعتقاد بوجود الله. وكما قال آينشتين: «إنَّ الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى؛ ليس تعيساً فحسب، ولكنه غير مؤهل للحياة».

ما هو شعور أكبر ملحد في الدنيا إذا تراكبت عليه الهموم والأحزان والمصائب؛ وصدمته المخاطر من كل جهة، فلم يجد سبباً مادياً ينقذه؟ أفلا تتيقظ فيه ـ في أشد الحالات ـ فطرته الأولى فينادي: أيتها القوة المهيمنة على الكون أسعفيني؟!

ماذا كان قول فرعون حين أدركه الغرق؟! إنه قال: «آمنت برب موسى وهارون»، «آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل!»

إن تجربة إلقاء الملحدين في المخاطر والمآزق التي لا يجدون لدفعها سبباً مادياً؛ هي من أعظم التجارب التي تكشف عن فطرتهم الأولى السليمة الصافية، والتي دخل إليها ـ فيما بعد ـ دخيل الفساد والشذوذ والإجرام، منذ شذّوا وجنحوا عن الحق بشهواتهم وأنانياتهم.

إنَّ هذه التجربة لتكشف عن فطرتهم، فيعلنون ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ أن الله وراء المادة، هو الواحد العليم، القادر المريد، المتصرف بكل شيء.

إنهم ينادون الله بعد إلحاد، ويلتمسون إنقاذه وعونه بعد كفر، ثم إن الله تعالى ـ كدليل على وجوده وقدرته، واستجابته لدعوة المضطر إذا دعاه ـ ينقذهم وينجيهم، حتى إذا وصلوا إلى شاطىء السلامة، ووضعوا أقدامهم على البر الآمن في نظرهم، إذ هم يكفرون، ويعودون إلى سيرتهم الأولى.

تلك هي نفوسهم المُجرمة، التي لم تلحد بالله؛ لأنها لم تجد الدليل على وجوده، ولكنها ألحدت به لتُرضي استكبارها وشهواتها، فهي لا تذعن إلى الله إلَّا في الشدائد والمآزق، فإذا أنعم عليها وأنجاها كفرت بأنعمه!!

وكذلك صوَّر الله حال الكافرين في قوله تعالى في سورة

الإسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

وفي قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وحين يلحد الملحدون فإنهم لن يضرّوا الله شيئاً، ولكنهم يخسرون أنفسهم، ويخسرون سعادتهم، ويخسرون مجدهم وعزتهم وقوتهم في الحياة الدنيا، وهذا ما اعترف به عقلاء الشعوب التي كفرت بربّها.

قال الماريشال (بيتان) الفرنسي، بعد احتلال الألمان لبلاده في الحرب العالمية الثانية: (لقد حلّت بنا الهزيمة لأننا ابتعدنا عن الله).

وقال الجنرال (ديغول) في مستهلّ عهده برئاسة الجمهورية في فرنسا: (إن فرنسا قد فقدت مكانتها كدولة عظمى؛ لأنها فقدت الإيمان بالله، وإنها لكي تستردّ مكانتها يجب أن تستردّ إيمانها بالله).

بعض المسالك النظرية التي تلزم العقل بالإيمان بوجود الخالق:

ولئن كان وجود الخالق من الأمور البديهية، المركوزة في فطرة الإنسان منذ نشأته الأولى، منذ بدأ يدرك نفسه والكون من حوله، كما سبق بيان ذلك.

لكنه لا بد لنا من أن نسوق بعض البراهين النظرية، لعلها تستخدم كوسيلة للتعرف على صدق هذا الإحساس الفطري. ولإزالة ما يمكن أن يعرض على النفس من شكوك، تأثرت بها من وقائع البيئة المادية التي وجد الإنسان فيها. ولإزالة الغشاوات التي تتعرض لها مرآة النفس من ظلمات الشهوات والغرائز المنحرفة؛ التي دبَّ إليها الشذوذ فأصبحت مستكبرة ظالمة.

وإليك بعض الأدلة النظرية العقلية، التي تلزم العقل بالإيمان بوجود الخالق الواحد؛ المنزَّه عن كل ما لا يليق بكمال الألوهية: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: 3] ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾ [الإسراء: 111].

الأدلة العقلية والنقلية على وجود الله

١ ـ دليل الإلزام العقلي بين الوجود والعدم

المرحلة الأولى من الدليل:

لا يشك عاقل في الدنيا بأن الوجود يقابله العدم، وأنه لا ثالث بين الوجود والعدم، ولا ثالث وراء الوجود والعدم. هذان اثنان إذا وجد أحدهما انتفى الآخر لا محالة، وإذا انتفى أحدهما وجد الآخر لا محالة. وهنا نتساءل مع أنفسنا فنقول: أيهما الأصل؟ هل الوجود الذي يقابله العدم العام هو الأصل، أو العدم العام هو الأصل؟

وللإجابة على هذا التساؤل: لا بد أن نسلك مسلك افتراض أن أحدهما هو الأصل؛ ثم ننظر هل يتعارض معه ـ على أنه الأصل ـ ما ينقضه أولاً. وعلى هذا فلنفرض أن الأصل لكل ما يخطر في الفكر وجوده هو: العدم. ومعنى العدم: نفي ذات ما يخطر بالبال، ونفي صفاته. فلا ذات ولا قوة ولا إرادة ولا علم ولا حياة ولا أي شيء.

وبحسب هذا الافتراض نتساءل: كيف استطاع العدم ـ الذي هو الأصل ـ أن يتحول إلى الوجود؟ ألسنا نشعر بوجود أنفسنا؟ ألسنا نرى موجودات كثيرة من حولنا؟! والعدم معناه كما عرّفناه هو النفي العام لكل ما يخطر بالبال؛ فكيف يأتي من هذا العدم العام ذوات وصفات وقوى، فتنطلق بنفسها من العدم إلى الوجود، وانطلاقها لا يكون إلا بقوة، والمفروض أن هذه القوة عدم أيضاً؟!

إنه من المستحيل بداهة أن يتحول العدم بنفسه إلى الوجود، أو

أن يوجِد العدمُ أي شيء. وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: هل انتقلوا من العدم إلى الوجود من غير خالق؟ أم هل كانوا هم الخالقين لأنفسهم في هذا الانتقال؟ وكلاهما من الأمور المستحيلة بداهة. وهكذا: لو كان العدم هو الأصل العام لم يوجد شيء من هذه الموجودات التي لا حصر لها؛ ولذلك كان علينا أن نفهم حتماً أن الأصل هو الوجود، وبهذا الدليل ثبت بشكل عقلي قاطع أنه لا يصح أن يكون العدم هو الأصل. وحيث كان الأمر كذلك، فقد ثبت بشكل عقلي قاطع أيضاً: أن الأصل هو الوجود، لأن الوجود كما سبق نقيض العدم ولا واسطة بينهما.

ثم نقول: إن ما كان هو الأصل بين شيئين متناقضين لا يحتاج وجوده إلى تفسير أو تعليل؛ لأنه متى احتاج وجوده إلى تعليل لم يكن أصلاً، وإنما تطلب الأسباب والتعليلات للأشياء التي ليست هي الأصل. وبهذا الاستدلال ظهر لدينا بوضوح شيئان:

أ ـ أن الأصل هو الوجود.

ب ـ أن الأصل لا يتطلب في حكم العقل سبباً ولا تعليلاً أكثر من أن يقال:

إنه هو الأصل.

المرحلة الثانية من الدليل:

إذا كان الوجود هو الأصل لا محالة، فهل يمكن أن يكون

لهذا الأصل بداية؟ وهل يمكن أن يلحقه العدم؟ وللإجابة على هذا التساؤل نقول:

1 ـ إن ما كان وجوده هو الأصل لا يصح عقلاً أن يكون لوجوده بداية؛ لأن ما كان لوجوده بداية، فلا بد أن يحتاج في وجوده إلى سبب أوجده، وما كان كذلك لا يمكن أن يكون وجوده هو الأصل.

2 ـ إن ما كان وجوده هو الأصل لا يمكن أن يلحقه العدم؛ لأن كل زمن لاحق نفرض أن يطرأ فيه العدم على ما أصله الوجود. نقول فيه أيضاً: لا يزال الوجود هو الأصل، ولا سبب لأن يطرأ عليه العدم أبداً، لأنه لا يطرأ العدم على أي موجود من الموجودات، إلَّا بوصف أن يكون العدم فيه هو الأصل، وإنما انتفى ذلك في زمن ما بسبب من الأسباب، فهو ينتظر زوال السبب حتى يعود إلى أصله، وقد ثبت لدينا أن العدم من حيث هو مستحيل أن يكون هو الأصل العام ضد الوجود.

ولذلك يستحيل عقلاً أن يطرأ العدم على وجود علمنا أنه هو الأصل. وإلى هذه الحقيقة جاءت الإشارة في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ فالحي الذي لا يموت هو من كان وجوده هو الأصل، وكذلك حياته وصفات الكمال فيه، فلذلك لا يمكن أن يطرأ عليه العدم أو الموت.

المرحلة الثالثة من الدليل:

علمنا في المرحلتين السابقتين:

أ ـ أن الوجود من حيث هو يجب عقلاً أن يكون هو الأصل.

ب ـ أن ما كان وجوده هو الأصل استحال أن يكون له بداية، وأن يطرأ عليه العدم.

والآن: فلنلق نظرة على الموجودات التي تقع تحت مجال إدراكنا الحسي في هذا الكون الكبير؛ لنرى هل تنطبق عليها فعلاً الحقيقة الأولى، وهي أن الأصل فيها لذاتها الوجود؟ أو ينطبق عليها ضدها، وهي أن الأصل فيها العدم؟

وهنا تبدو لنا حقيقة: أننا لم نكن ثم كنا، ونحن صنف ممتاز التكوين في هذا العالم. قال تعالى في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ وأن أشياء كثيرةً كانت في طي العدم في أشكالها وصورها، ثم وجدت كما هو مشاهد لنا باستمرار. كما تبدو لنا صور التغيرات الكثيرة الدائمة، في كل جزء من أجزاء هذه المواد الكونية التي نشاهدها أو نحس بها؛ أو ندرك قواها وخصائصها.

فمن موت إلى حياة، ومن حياة إلى موت، ومن تغيرات في الأشكال والصور، إلى تغيرات في الصفات والقوى، وكل ذلك لا يعلل في عقولنا وفق قوانين هذا الكون الثابتة التي استفدناها من الكون نفسه؛ إلا بالأسباب المؤثرة التي تحمل سرَّ هذه التغيرات الكثيرة المتعاقبة في كل شيء من هذا الكون؛ على اختلاف جواهره

وصفاته، سواء منها المتناهي في الصغر، أو المتناهي في الكبر.

ومن هذه الأسباب ما نشاهده، ومنها ما نستنتجه استنتاجاً، ولا نزال نتسلسل مع الأسباب، حتى نصل إلى سبب هو سبب الأسباب الأول.

وهنا نقول: لو كان الأصل في هذه الموجودات المعروضة على حواسنا هو الوجود؛ لم تكن عرضة للتحول والتغير؛ والزيادة والنقص، والبقاء والفناء، ولم تحتج صور وجوداتها وتغيراتها إلى أسباب ومؤثرات.

وحيث إنها عرضة للتحول والتغير، وحيث إن قوانينها تفرض احتياجاتها إلى الأسباب والمؤثرات، لزم عقلاً أن لا يكون الأصل فيها هو الوجود، وإنما يجب عقلاً أن يكون الأصل فيها هو العدم. لذلك: فهي تحتاج في وجودها إلى سبب موجد، وسنعرض إلى مبدأ السببية في دليل خاص. وبهذه المرحلة من الدليل ثبت لدينا ما يلي:

أ ـ أن الأصل هو العدم في جميع هذه الأشياء الكونية القابلة للإدراك الحسي؛ وكل ما شابهها في الصفات.

ب ـ وحيث كان الأصل في جميع هذه الأشياء الكونية العدم: وجب عقلاً أن يكون لها سبب مؤثر، نقلها من العدم إلى الوجود في مرحلة وجودها الأول، ولا يزال يؤثر باستمرار في جميع صور تغيراتها المتقنة الحكيمة.

وقد عرض القرآن إلى حقيقة أن الأصل فينا العدم، وأننا لم نكن ثم كنا، في قوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ

حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ ومعلوم بداهة أن المسبوق بالعدم لا بد له من موجد أوجده، وخالق خلقه وصوره.

المرحلة الرابعة والأخيرة من الدليل:

علمنا من المراحل الثلاث السابقة الحقائق الثلاث التالية:

1 ـ أن الوجود من حيث هو يجب عقلاً أن يكون هو الأصل.

2 ـ أن ما كان وجوده هو الأصل استحال أن يكون له ابتداء، وأن يطرأ عليه العدم.

3 ـ أن هذه الأشياء الكونية المعروضة على حواسنا ومداركنا ـ والتي نحن جزء منها ـ وكذلك كل ما شابهها: الأصل فيها العدم، ويحتاج وجودها إلى سبب موجد.

وهنا نقول: حيث اجتمعت لدينا هذه الحقائق الثلاث التي لا مفرّ منها، ولا محيد عنها، فلا بد لنا من التوفيق بينها بشكل تقبله العقول قبولاً تاماً من غير اعتراض؛ وذلك لا يكون إلا وفق صورة واحدة لا ثانية لها، وهي أن نقول:

أولاً ـ لا بد عقلاً من وجود خالق عظيم: وجوده هو الأصل في الكائنات، وعدمه مستحيل، لذلك فهو (واجب الوجود عقلاً).

ثانياً ـ هذا الكون المشاهد ـ بما فيه من أرض وسمٰوات،

ونجوم ومجرّات، وجامد ونبات، وأحياء وأموات ـ: الأصل فيه العدم، ولا بد لإخراجه من العدم إلى الوجود من سبب موجد.

ثالثاً ـ لا يكون السبب الموجد للكون بجميع ما فيه إلا خالقاً عظيماً، وجوده هو الأصل، وهو واجب الوجود. وذلك هو: (الله سبحانه وتعالى).

خاتمة حول هذا الدليل:

وبهذه الطريقة من الاستدلال يسقط نهائياً تساؤل المتسائلين: كيف وُجِد الله سبحانه؟ لأنه تساؤل لا يعتمد على منطق وعقل، ذلك أن مثل هذا التساؤل إنما يرِد في موجود تثبت قوانينه وصفاته أن الأصل فيه العدم، فهو يحتاج إلى موجد حتى يوجده ويبدعه من العدم.

أما الخالق الذي يجب عقلاً أن يكون الأصل فيه الوجود؛ ولا يجوز عليه العدم، فلا يمكن أن يتعرض وجوده إلى مثل هذا التساؤل بحال من الأحوال. وإيراد تساؤل من هذا النوع يتنافى مع الحقيقة العلمية الثابتة وهي: أن الأصل فيه هو الوجود.

٢ ـ دليل الإمكان في الكون

بملاحظتنا لكل شيء في الكون: سواء كان من الأشياء المادية التي يمكن أن ندركها ببعض حواسنا، كالأرض والنجوم. أو كان صفة من الصفات القائمة في الأشياء المادية التي نستنبط وجودها بعقولنا، كالجاذبية الخاصة الموجودة مثلاً في حجر المغناطيس،

وكالجاذبية العامة الموجودة مثلاً بين الكتل المادية، وكخواص المركبات المادية التي لا حصر لها في الكون، سواء في ذلك الظواهر الكيميائية أو الفيزيائية.

وبملاحظتنا لما نعقل عن جواهر الوحدات المستقلة المتحيزة التي لا تدخل في نطاق إحساسنا؛ كالملائكة والجن، وكيفية تكوينها وأعراضها وصفاتها.

من خلال ملاحظتنا لجميع هذه الأشياء الكونية، ندرك بداهة في كل واحد منها أنه كان من الممكن عقلاً أن يتخذ صورة وصفة وحالة غير ما هو عليه الآن؛ فهنالك احتمالات كثيرة لا حصر لها في مجال الممكنات، لا يرى العقل مانعاً من أن تتحول هذه الأشياء الكونية إلى واحد منها.

فالعقل لا يمنع من أن تتخذ مثلاً صورة غير الصورة التي هي عليها، وشكلاً غير الشكل الذي هي عليه، أو حداً غير حدها الواقع كماً وكيفاً. فتكون مثلاً أكبر مما هي عليه أو أصغر، أو مركبة غير التركيب الذي هي عليه، أو في حيِّز من الكون وزمان من الدهر غير حيزها وزمانها، أو أن تكون لها صفات وقوى غير صفاتها وقواها، أو حركات ومدارات وسرعات مغايرة لما هي عليه.

كل هذا وأمثاله من الاحتمالات التي لا حصر لها، مما يجوزه العقل بداهة، ويعتبره من الممكنات العقلية، التي لو كان تركيب الكون على وفقها لم يكن في ذلك منافاة لأصل عقلي.

فما المانع مثلاً من أن يكون الليل والنهار سرمدين؟ وما المانع

العقلي من أن يكون الإنسان على غير هذا الوضع القويم، أو أكبر أو أصغر مما هو عليه جسداً وهامة؟ وما المانع من أن يكون العقل في البهائم، والنطق في العجماوات؟ وما المانع من أن تكون الأرض أدنى إلى الشمس والقمر من الوضع الذي هي عليه؟ أو غير ذلك من أشياء كثيرة.

فإن قيل: إن الحكمة تقتضي أن تكون هذه الأشياء كما هي عليه الآن؛ وإلَّا لاختل النظام وفسدت النتائج المرجوة من هذا الكون، قلنا: الحكمة صفة الحكيم، وذلك الحكيم هو الله تعالى.

ونقول من ناحية أخرى: حيث إن كل شيء في هذا الكون يحتمل أن يكون على واحد من أوضاع كثيرة غير الوضع الذي هو عليه؛ فإن عقولنا لا بد أن تحكم بداهة بأن ما كان كذلك فلا بد له من مخصص قد خصصه باحتمال موافق للحكمة والإبداع والإتقان؛ من جملة احتمالات كثيرة. ولولا وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح؛ أو القول بأن: موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان على طريقة التصادف، وكلاهما مستحيل عقلاً. ونحن بوصفنا عقلاء في هذا الكون؛ لا نقبل أن نلتزم المستحيلات بينما نرى أن قوانين هذا الكون ثابتة لا تتخلف أبداً، ومن قوانينه رفض الترجيح بلا مرجِّح، ورفض احتمال المصادفة في نظام هذا الكون البديع. وأي الأمرين أسلم، وأكثر قبولاً في العقل: هل إحالة هذا النظام الحكيم البديع في الكون إلى حكم المصادفة المستحيلة في العقل؟ أم إلى حكمة مخصِّص حكيم، قد خصص هذا الممكن في احتماله الموافق للحكمة؟!

وحيث ثبت لدينا احتياج هذه الممكنات إلى المخصص الحكيم؛ فإن عقولنا تحكم بشكل قاطع: أن هذا المخصص يجب أن لا تكون ذاته أو صفاته محلاً لأي احتمال من الاحتمالات الممكنة؛ التي تتعرض لها هذه الأشياء الكونية في نظر العقل. وإنما يجب أن يكون على وضع ثابت واجب عقلاً، لا يقبل العقل ـ بحال من الأحوال ـ أن تحتمل ذاته أو صفاته وضعاً آخر.

هذا الخالق الواجب الثابت في ذاته وفي صفاته، والذي يوجب العقل أن يسند إليه تخصيص هذه الممكنات في واحد من احتمالاتها الكثيرة؛ هو واجب الوجود، وليس بممكن الوجود حتماً (وهو الله تعالى)، وبذلك يثبت المطلوب.

ونستطيع أن نسمي هذا الدليل بـ (دليل الإمكان في الكون).

وقد أشار القرآن إلى دليل الإمكان في عدة آيات، منها:

أ ـ قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

ب ـ وقوله تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

ج ـ وقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾.

د ـ وقوله تعالى في سورة الملك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

هـ ـ وقوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

فقد بين الله سبحانه في هذه الآيات وأمثالها من القرآن الكريم: أن الصور والأنظمة والأوضاع التي تشاهدونها في الكون، من الممكن أن تتخلف وتتغير، وأن تتحول من وجود إلى عدم، ومن وضع إلى وضع، وذلك بقدرة الله تعالى. فإذا أراد الله أن يسلب هذه النظم الحكيمة القائمة في الكون، وينجم عن ذلك الإضرار بحياة الناس في الأرض، فهل يستطيع أحد غير الله أن يثبتها على أوضاعها؟!

فلو جعل الله الظل ساكناً لا ينسخه الضياء، ولو جعل الله الليل سرمداً، أو النهار سرمداً، فماذا سيكون وضع حياة الإنسان على وجه الأرض؟! لا شك أن ذلك سيكون خطراً محدقاً بالمجموعة البشرية، لأن النهار بشمسه سبب دفئهم ورزقهم، والليل بسكونه وظلمته لباسهم وراحتهم بعد المشقة والتعب.

ثم أليس من الممكن أن يُذهبَ الله هذا الخلق ويأتي بغيره؟! أليس من الممكن أن يغوّر الله الماء في الأرض، فلا يستطيع الناس له طلباً؟! أليس من الممكن أن يجعل الله الزروع والثمار حطاماً، فيحرم الناس من أرزاقها؟! أليس من الممكن أن ينزل الله الماء من السحاب مالحاً كدراً أجاجاً، غير صالح للشرب وري المزروعات؟!

إذا كان كل ذلك من الممكنات، فلا بد أن يكون وضعها القائم فعلاً ممكناً أيضاً، لأنه أحد الاحتمالات المقابلة للصور المفروضة، وإذا كان ممكناً، فلا بد أن يكون له مخصِّص قد خصصه بأحد ممكناته المحتملة، وهذا المخصص هو الموجد الذي أوجدها من عدم، إذ الأصل في جميع الممكنات العدم، ولا تخرج من العدم إلى الوجود إلا بموجد قادر حكيم: (وهو الله سبحانه).

٣ ـ دليل التغير والسببية

ونسير في هذا الدليل على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى من الدليل:

ننظر إلى الموجودات الكونية: سواء منها الموجودات المادية المدركة بالحسّ، أو الموجودات الأخرى الخارجة عن نطاق الإدراك الحسي؛ والتي نستنتج وجودها ببرهان العقل، فنلاحظ أن حوادث التغير لا تنفك عنها أبداً، فما من شيء في هذا الكون الفسيح، إلا ونلاحظ أنه في أوضاع من التغيرات الكثيرة بشكل مستمر.

فهذه التحاويل الكونية في المواد الكيميائية حوادث مستمرة؛ وهذه الأعراض في الظواهر الفيزيائية في تغير مستمر.

نرى ذلك في تحول البذور إلى أشجار وثمار، ثم تحولها إلى رماد أو هشيم يتفتت، ثم يتحول إلى عناصره الكيميائية والفيزيائية، البسيطة أو المركبة.

ونرى ذلك في تحول الأغذية إلى دماء في الأحياء، ثم إلى

نطف، ثم إلى أحياء أخرى لها وحدات مستقلة في صفاتها وأعراضها، وخصائصها وأعمارها وطباعها.

ونرى ذلك في الحركة الدائبة في هذه الكرات الكونية السابحة في أفلاكها؛ وفي عوالم المجرّات الكونية الكبرى، كما يذكر علماء الفلك.

ونرى ذلك في الحركة الدائبة في الذرات، كما يذكر علماء الذرة في حديثهم عن الأليكترونات السالبة.

ونرى ذلك في تحول الصوت إلى كهرباء، والكهرباء إلى اهتزازات في الفضاء، ثم تعود كرتها الثانية حتى ترجع فتظهر أصواتاً في الأجهزة اللاقطة (الراديو).

ونرى ذلك في تبخر الماء وتجمعه سحباً، ثم تميعه وهطوله غيثاً يحمل الخير والخصب لأرض مجدبة ميتة عطشى.

ونرى ذلك أيضاً في تحول الفحم مثلاً إلى ماس في الأزمان الطويلة، وتحول الصخور بمرور الدهور من صفة إلى صفة، ومن وضع إلى وضع، بتأثير أنواع الحرارة والضغوط.

ونرى ذلك يومياً في تعاقب الليل والنهار، وطلوع الشمس والقمر وغروبهما، وظهور النجوم وأفولها.

ونرى ذلك في تعاقب الصيف والشتاء، والحر والبرد، كما نراه في الحياة والموت. ومعلوم أن الحياة أكثر ظاهرة من التحول

عجيبة، يُولَد سرها مع الأحياء كميناً مجهولاً فيها، ثم يموت سرها مع الأحياء إذا ماتت.

إلى أشياء أخرى كثيرة لا تتناهى استقصاءً وحصراً. ومنها أشياء تكون حالة التغير فيها ظاهرة سريعة كالحيوان والنبات، أو بطيئة ـ لا تظهر لأنظارنا إلا بألوف السنين، أو بملايينها ـ كالتغيرات الكونية التي تظهر في عوالم النجوم، وفي الأجسام الجامدة الصلبة.

إننا نعيش إذن في عالم نستطيع أن نسميه (عالم المتغيرات). وبعد هذه المقدمة المزودة بأمثلة كونية متعددة، نستطيع أن نمثل حالة التغير هذه في كل جزء من الكائنات في هذا العالم المادي الفسيح؛ مبتدئين من لحظة تفكيرنا الآن، وراجعين بذلك إلى الزمان الماضي، على شكل متموج.

المرحلة الثانية من الدليل:

ثم نقول: إن التغير لا ينفك عقلاً عن معنى الحدوث، لأنه لو فرضنا أنه حصل تغير في المكان لجسم من الأجسام ـ مع العلم أن التغير المكاني هو أبسط أنواع التغيرات الكونية على الإطلاق ـ؛ ولنرمز للمكان الذي كان فيه هذا الجسم بنقطة (أ)، وللمكان الذي انتقل إليه الجسم بنقطة (ب).

فالحادثة حادثة تغير مكان من نقطة (أ) إلى نقطة (ب)، ونستطيع هنا أن نقول: إن الجسم قد حدث وجوده في نقطة (ب) بعد أن لم يكن، وانعدم وجوده من نقطة (أ) بعد أن كان.

وبهذا نرى أن هذا التغير المكاني الذي هو أبسط أنواع التغيرات لم ينفك عن معنى الحدوث في جهة والانعدام من جهة.

هذا في التغيرات المكانية، فكيف بالتغيرات الجوهرية التي تتناول التغيرات في التركيب والصفات والخواص وغير ذلك؟!

المرحلة الثالثة من الدليل:

وبملاحظتنا للقوانين العامة لهذا الكون ـ التي لم تتخلف في شيء منها، والتي هي من الأمور البديهية في نظر الناس، وفي نظر العلم التجريبي ـ نرى أنه لا بد لكل تغير يحدث في أي جزء من أجزاء الكون من سبب أثَّر فيه تأثيراً يكفي لأن يحوِّله ويغيره من وضع إلى وضع آخر.

ثم نقول: إن أبسط أنواع التغيرات وهو التغير المكاني ـ كانتقال قطعة من الصخر مثلاً من نقطة (أ) إلى نقطة (ب) ـ لا يسلِّم عاقل من العقلاء أن هذا التغير يحدث بنفسه من غير سبب يؤثر فيه ذلك الانتقال؛ تطبيقاً لمبدأ السببية البدهي في عقولنا، والذي استنتجناه من قانون الكون الدائم. فلو وضعت في صندوقك المقفل مثلاً ما جمعته من نقود ذهبية في صرة خاصة؛ ثم غبت عنه يوماً ورجعت إليه بعد ذلك، فلم تجد صرة نقودك، وبعد البحث الشديد والتحري، وجدت نقودك كلَّها داخل صرتك الخاصة في صندوق جار لك. ولما ثبتت أنها هي نقودك وصرتك فعلاً، ادَّعى أمام القاضي أنها انتقلت إلى صندوقه بنفسها، وادَّعى أنه رآها تمشي في الهواء بنفسها متجهة إلى صندوقه، وما زالت العقبات تُذلَّل في الطريق دون وساطة أحد، فتنفتح مغاليق الأبواب بنفسها، وتنشق الجدران بنفسها، ونحو ذلك من أخيلة خرافية، حتى وصلت إلى

صندوقه ودخلت فيه، وهو لا يعلم من أين جاءته، وقد فرح بها، وظن أنها اختارته دون غيره!

لو ادَّعى من وجدتَ نقودك عنده هذه الدعوى فهل تصدقه؟ أو هل يوجد عاقل في الدنيا يصدقه أو يسلِّم بما يقول؟!

إن هذا التغير ـ وهو أبسط أنواع التغيرات ـ لا يسلم العقلاء أنه حدث بنفسه، فما بالك بالتغيرات الجوهرية في التركيب والتحليل، وتحول التراب إلى أغذية، والأغذية إلى أجسام حية متحركة دبت فيها الحياة؛ فأصبح منها المدرك العاقل ذو القوة الفائقة، التي يستطيع أن يفعل الأعاجيب، ويستخدم قوى الكون الكامنة، فيتصرف فيها تصرفات عجيبة. فلربما استطاع أن يطلق من مكامن القوى في الكون قوى تبدد المدن والقرى، وتزلزل الجبال الراسيات، وتثير التيارات في المحيطات!!

إن من المسلّم به أن كل هذه التغيرات الكونية لا بد لها قطعاً من سبب حقيقي: كامل القدرة صدرت عنه هذه القوى الكونية الكبرى، وتمت بخلقه هذه التغيرات الكونية الهائلة، والحوادث العجيبة. وكامل الحياة أيضاً دبت عنه صورة الحياة في الأجساد الحية. وكامل العلم صدرت عنه العقول القابلة للعلم والمعرفة. وكامل الحكمة صدر عنه كل أمر متقن محكم، إلى غير ذلك من صفات الكمال. ولا يمكن أن يكون هذا القادر الحي الحكيم العليم إلا منزهاً عن التغير والتحول والضعف. فلا بد أن يكون ثابتاً كامل الصفات، واجب الوجود في ذاته وفي صفاته، لئلا يلزم احتياجه إلى سبب آخر ـ بمقتضى التشابه بينه وبين عالم المتغيرات لو كان ذلك ـ

وهو محال عقلاً. وهذا الذي هو واجب الوجود في ذاته وفي صفاته (وهو الله تعالى).

أمثلة من اقامة الحجة بمضمون هذا الدليل:

1 ـ وهذا الدليل نفسه هو الدليل الذي اعتمد عليه أبو حنيفة ﷺ، حينما أقام الحجة على الزنادقة مثبتاً لهم وجود الله تعالى:

فقد ذكر المؤرخون في مناقبه: أن بعض الزنادقة طلبوا إليه أن يجادلوه في الله، فذكر لهم موعداً يأتي إليهم فيه لمجادلتهم، وإقامة الحجة عليهم بوجود الله سبحانه.

ولما حان الموعد تأخر عنهم ﷺ، وهم ينتظرون، ثم قدم إليهم بعد أن يئسوا من مجيئه، فعاتبوه في التأخر، فقال لهم معتذراً: لقد قدمت إليكم في الموعد المحدد، ولكنني لبثت طويلاً على شاطىء دجلة، باحثاً عن صاحب زورق يجتاز بي النهر، فما وجدت. ولما يئست وهممت بالرجوع، رأيت ألواحاً من الخشب قادمة بنفسها، وجعلت تنضم إلى بعضها حتى صارت بين يدي زورقاً حسناً، فركبته وقطعت به النهر، وقدمت إليكم الآن!

فقال الزنادقة جميعاً لأبي حنيفة: أتهزأ بنا؟ وهل يمكن أن تأتي ألواح بنفسها كما وصفت فتكوّن زورقاً؟!

فقال لهم: هذا ما اجتمعتم لتجادلوني به! فإذا كنتم لا تصدقون أن زورقاً يصنع نفسه بنفسه، فكيف تريدون مني أن أصدق، أم كيف تصدقون أنتم في عقولكم، أن هذا الكون المتقن العجيب

قد جرت حوادث تغيراته بنفسه دون خالق عظيم؟! فبُهتَ الزنادقة، وقامت عليهم الحجة الدامغة، وأسلموا على يده ﷺ.

هذه القصة عرضت لك فيها معنى ما جرى بين أبي حنيفة ومجادليه؛ دون التزام لحكاية الألفاظ.

2 ـ إن فكرة التغير والسببية قد قامت في عقول أكثر الفلاسفة القدماء؛ فجعلتهم يؤمنون بواجب الوجود، ذلك أنهم رأوا أحوال الأرض وتغيراتها، فثبت لديهم أنها بحاجة إلى مؤثر، وحكموا في فلسفتهم بذلك. ولكن بعضهم لما نظروا إلى الأفلاك زعموا أن اتصاف السمٰوات بمقاديرها، وأحيازها وأوضاعها وحركاتها، أمر واجب لذاته ممتنع التغير عن هذا الوضع، فيستغني عن المؤثر! ثم لما أرادوا بيان المؤثر في أحوال الأرض وتغيراتها قالوا: نحيل ذلك إلى الأفلاك والكواكب والنجوم التي هي واجبة الوجود. ولما رأوا في الأرض الحياة والعقل لزمهم أن يقولوا: إن الأفلاك عاقلة حية، حتى استطاعت أن تمد أحياء الأرض بالحياة والعقل؛ ومن ثَمَّ قامت عندهم فكرة العقول العشرة، وما إلى ذلك من ضلالات!!

لقد ألزمهم التفكير من جهة الأرض بوجوب التسليم عقلاً بواجب الوجود، ولما جهلوا مشابهة السماء للأرض، ورأوها في حد نظرهم ثابتة الصفات، زعموا أنها هي واجبة الوجود فألّهوا الأفلاك.

وهنا أرشدهم سيدنا إبراهيم عليه السلام في محاجّته لقومه، إلى مماثلة الأفلاك والنجوم وكل ما في السماء للأرض من تغيراتها؛ التي يقضي العقل بأنها حوادث تحتاج إلى مؤثر واجب الوجود، وأثبت لهم أن الرب تعالى ـ الذي هو واجب الوجود ـ غير هذه الأجرام

السماوية التي يؤلهونها، بدليل أفولها وتغيرها المشاهد بالحس. وقد حكى الله عنه ذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

وكانت فلسفة إبراهيم عليه السلام في نظره العميق، هي طريق إيمانه بالله أول الأمر، ثم جاءته النبوة فكان من المرسلين.

3 ـ قام هذا الدليل نفسه في نفس الأعرابي الذي قال ببداهته: (وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا تدلان على الواحد القدير).

4 ـ قام هذا الدليل نفسه في عقول كثير من العلماء الماديين الطبيعيين، واستدلوا به على وجود الخالق جلّ وعلا.

ومنهم «أندرو كونواي إيفي» ـ من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية من سنة 1925 إلى سنة 1946 ـ فقد كتب يقول تحت عنوان (وجود الله حقيقة مطلقة):

(إن أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ قانون السببية، فبدونه تنعدم جميع الأشياء الحية، والعقل البشري لا يستطيع أن يعمل إلّا على أساس السببية، إنني أسلّم أن لقانون السببية وجوداً حقيقياً).

التنبيه الى دليل التغير والسببية في القرآن الكريم:

لقد نبه القرآن الكريم إلى معنى التغير الدائم، القائم بكل شيء في هذا العالم، في كثير من الآيات الكريمة، التي تتضمن لفت النظر إلى وجود الله سبحانه، وإلى صفة خلقه للأشياء.

ولئن كنا عبرنا بلفظ السبب ومعنى السببية من وجهة النظر التي سقناها في الدليل؛ فإن الله سبحانه قد اختار في القرآن اللفظ الأدق في التعبير ـ والذي يتناسب مع صفة الألوهية ـ ألا وهو لفظ (الخلق)؛ ذلك أن السببية متى انتهت إلى العليم الحكيم المريد المختار القادر على كل شيء؛ كانت خلقاً.

فلكل صورة من صور التغير في هذا العالم ـ الذي أسميناه عالم المتغيرات ـ خلق رباني؛ كان هو السبب الحقيقي في حدوث ظاهرة التغير، من وراء الأسباب الصورية.

وما أكثر الآيات القرآنية التي تشير إلى مضمون هذا الدليل بصيغة الخلق؛ لأن صيغة الخلق هي التي تتناسب مع الألوهية كما بيَّنا. ومن تلك الآيات القرآنية الكثيرة، قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ۖ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

ومعنى ﴿**يزجي سحاباً**﴾ يسوقه سوقاً رفيقاً إلى حيث يريد. ﴿**يجعله ركاماً**﴾: متراكماً فوق بعضه. ﴿**الودق**﴾: هو المطر. ﴿**السنا**﴾: شدّة الضوء.

إننا نرى هذه الآيات ـ وأمثالها في القرآن الكريم ـ تتحدث عن التغيرات الكثيرة التي نشاهدها في هذا العالم، وتشير إلى أن هذه التغيرات لا بد لها من سبب، وأن سببها الحقيقي الأول لا بد أن ينتهي إلى معنى الخلق والإبداع، وذلك لا يكون إلا من صفات الخالق. وعلى طريقة الإيجاز القرآني واختصار سبيل الحجة، ذكرت الآيات القرآنية الخلق من أول الأمر.

فتحويل الأتربة بوساطة الماء إلى أغذية، والأغذية إلى دماء، والدماء إلى نُطَف، ثم تحويلها إلى بشر سوي منه الذكر ومنه الأنثى.

وإزجاء السحاب والتأليف بينه، وجعله ركاماً، وإخراج الودق من خلاله، وإنزاله على أرض دون أرض وفق المشيئة، وإضاءة البرق وسط السحب، وتقليب الليل والنهار، وتحويل الماء إلى دوابّ حية، وجعل الدوابّ على أنواع مختلفة، وأصناف متعددة.

كل هذه الأشياء ـ ونظائرها التي لا تحصى ـ صور من التغيرات الكونية الدائمة؛ التي تتطلب في نظر العقل سبباً مؤثراً. وقد عرفنا أنه متى انتهى السبب المؤثر إلى سبب الأسباب كان ذلك خلقاً لا محالة؛ لأنه لا يكون سبب الأسباب إلا قادراً عليماً، مريداً مختاراً حكيماً، وذلك: (**هو الله تعالى**). وكل أفعاله خَلْقٌ، لذلك فهو يخلق ما يشاء، وهو على كل شيء قدير.

٤ ــ دليل الإتقان في الكون

من أعظم ما يدهشنا في أنفسنا، وفي الكون من حولنا، هو هذا الإتقان العجيب، في الصنع والتركيب. فما نصادف من شيء في الأرض ولا في السماء، إلا وهو في غاية الإتقان، مركب أحكم تركيب يؤدي به إلى غايته التي خلق من أجلها؛ باعتباره جزءاً من وحدته التي هو أحد أجزائها، أو باعتباره فرداً في مجموعة هو واحد من نوعها، أو باعتباره مجموعة هي واحدة من جنس مجموعات كثيرة. كل ذلك في جملة هذا الكون الذي تنتظمه وحدة مهيمنة، لا يستطيع أي جزء منه أن يتحرر منها، أو يفلت من قانونها.

أليس من الإتقان العجيب هندسة هذا الكون في مخطط كواكبه ونجومه؛ بحيث إنَّ أي تغيير فيه يؤدي به إلى الخلل والنقص، أو الخراب والفساد؟! سل عالم الفلك يظهر لك من دقائق إتقان الكون ما هو فوق الدهشة والحيرة.

أليس من الإتقان المدهش هندسة هذا الإنسان في خلقه وتكوينه؟! سل عالم التشريح عن مخطط جسم الإنسان وإتقانه وخواصه وميزه؛ يبين لك من صنعه عجباً يدهش العقول ويحير الألباب.

أليس من الإتقان البديع المحير هذه المجموعات الكبرى في عالم الحيوان: سواء منها الطائر والسابح، والماشي والزاحف، بأنواعها المختلفة، المتقنة في أشكالها وأوضاعها، وألوانها وخواصها، وطبائعها وطرق عيشها، وكبيرها وصغيرها؟! سل عالم

الحيوان عن عجائب الحيوانات وغرائبها، وإتقان تكوينها؛ يبدِ لك من أمرها عجباً يسلمك إلى الحيرة والدهشة في مدى حكمة صانعها.

أليس من الإتقان البديع المدهش هذه المجموعات الكبرى في عالم النبات: سواء فيها أشجارها وزروعها، هوائيها ومائيها، بثمارها وأزهارها، وأوراقها وأخشابها، ولدنها وصلبها، بألوانها وأشكالها، وطعومها وروائحها وخواصها؟! سل عالم النبات عن النباتات، يشرح لك من أمرها ما يفجر في قلبك الإيمان بصانعها العظيم؛ الذي أتقن كل شيء صنعاً.

أليس من الإتقان البديع تكوين الأرض: ببحرها ويابسها، بجبالها وأغوارها، ووديانها وسهولها، بصخورها ورمالها، وأتربتها ومعادنها، بينابيعها وأنهارها، بألوانها وطرقها، ببحرها وبرها، وصيفها وشتائها، بليلها ونهارها، بسيرها في فلكها ودورانها حول محورها، بجميع خواصها وصفاتها؟! سل عالم الجغرافية، وعالم الكيمياء، وعالم طبقات الأرض، سل عالم الطبيعة أيّاً كان اختصاصه، يظهروا لك من إتقان تكوين الأرض عجباً يهديك إلى رشدك، ويعرفك بوحدة الصانع الحكيم، الذي أتقن كل شيء صنعاً.

إنه كلما تقدم العلم، وازدادت المعارف التجريبية، تعرف الإنسان على دقائق جديدة من إتقان الصنع في هذه الموجودات الكونية، وازداد إيماناً بالصانع العظيم.

ثم إننا لا نرى ترتيباً متقناً محكماً في أي مركب من المركبات؛ إلّا ويستدعي ذلك في أذهاننا التفكير بمن أتقنه ورتبه هذا الترتيب المتقن الحكيم.

ذلك أن احتمال الإتقان الموافق للحكمة في مركبات تزيد أجزاؤها على عشرة أجزاء؛ ذو نسبة عددية ضئيلة جداً بالنظر للاحتمالات الأخرى غير المتقنة التي تفوق كثرتها الحصر، والتي يمكن أن تتألف هذه المركبات على وفقها، لو أنها كانت على سبيل المصادفة.

وإن عقولنا متى لاحظت مركباً على وجه الإتقان والحكمة، فإنها لا شك تفرض بداهة أن متقناً ما، حياً عالماً قادراً مريداً حكيماً، قد أتقن ترتيبها.

كما أنها ترفض رفضاً قطعياً أن يكون ترتيبها قد جاء على طريقة المصادفة؛ لأن صورة الإتقان على سبيل المصادفة في المركبات ذات الأعداد الكبيرة؛ من المستحيلات في مألوف العقلاء، كما أنها من المستحيلات أيضاً في نظر الحسَّاب الرياضيين.

وفي الأمثلة القريبة البسيطة من حياتك: تدخل إلى دار فترى أثاثها مرتباً بنظام حسن موافق للمصلحة؛ فتقول بداهة: لا شك أن هذا الترتيب لم يأت عن طريق المصادفة، وإنما هو بفعل فاعل مختار ذي نظر صحيح.

ويعرض عليك بائع الساعات ساعة لتشتريها، فتسأل أول ما تسأل ـ بعد أن يسرك شكلها ـ عن الصانع الذي صنعها، لتعرف مستوى مهارته، وجودة صناعته وخبرته، حتى تطمئن على حسن سيرها في المستقبل، وعلى دقة ضبطها للوقت، لأنك تعلم أنه يتوقف ما تطلبه منها من ضبط ومتانة على مقدار مهارة الصانع وإتقانه ونصحه.

إننا نؤمن بالصانع بداهة في كل الأمور الجزئية متى كانت موافقة للحكمة والمصلحة!

أفلا نؤمن بالخالق العظيم الحكيم، بالله رب العالمين، من خلال موجودات لا تحصى في هذا الكون، كل جزء فيها موضوع في مكان لو وضع في غيره لتعطلت الحكمة منه، ولاختلت المصلحة، ولو وضع غيره في مكانه لحصل الخلل أيضاً في الترتيب والنظام ووجه الإتقان؟!

إن إتقان الصنعة في هذا العالم الزاخر بالمتقنات، دليل واضح على الخالق المتقن الحكيم العليم، يشهده من الناس العالم والجاهل، الغبي والعاقل، الصغير والكبير، ويحكم به بداهة بأن الله حق، وهو على كل شيء قدير، وليس فوق حكم البداهة حكم لعاقل.

هذا عرض «لدليل الإتقان»، وقد سماه الكثيرون: «دليل العناية»؛ لأن ظاهرة الإتقان يلاحظ فيها أول ما يلاحظ عناية الله الحكيم العليم بخلقه، وتهيئته صور الإتقان المناسبة لمصالحهم.

التنبيه القرآني على مضمون هذا الدليل:

ولقد جاء التنبيه إلى مضمون هذا الدليل بشكل مجمل في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

كما جاء إيضاحه في كثير من آيات القرآن الكريم، على وجه

فيه شيء من التفصيل والتنبيه إلى كثير من صور الإتقان البديع في هذه المتقنات الكونية؛ حيث لم يوجد شيء منه إلَّا متقناً محكماً.

منها قوله تعالى في سورة النبإ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ ومعنى ﴿مهاداً﴾: فراشاً للاستقرار عليها: ﴿أوتاداً﴾: أي كالأوتاد للأرض لئلا تميد بنا. ﴿سُباتاً﴾: قَطْعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم. ﴿سراجاً وهّاجاً﴾: مصباحاً غاية في الحرارة وهي الشمس ﴿المعصرات﴾: السحائب ﴿ماءً ثجاجاً﴾: مُنْصَبّاً بكثرة. ﴿ألفافاً﴾: ملتفة الأشجار لكثرتها. ففي هذه الآيات ـ من سورة النبأ ـ تنبيه إلى جزئيات كثيرة، يتجلى فيها إتقان صنع الله لمن تدبر وعقل.

ومنها قوله تعالى في سورة عبس: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ ومعنى: ﴿قُتل الإنسان﴾: لُعن الكافر، أو عذب ﴿فقدّره﴾: فهيأه لما يصلح له: ﴿قضباً﴾: علفاً رطباً للدواب ﴿حدائق غلباً﴾: بساتين عظاماً متكاثفة الأشجار: ﴿أبّا﴾ كلأً وعشباً، أو هو التين خاصة.

وفي هذه الآيات أيضاً ـ من سورة عبس ـ صور كثير من صور إتقان صنع الله؛ في خلق الإنسان، وفي خلق ما يحتاجه في حياته من طعام نباتي، وطعام حيواني، وما يحتاجه في حياته من وسائل نقل حيوانية. إنها صور متكررة فيما نشاهد في هذه الأرض، ولكن فيها عبر كثيرة تنطق بعظمة متقنها وخالقها، لمن أراد أن يذَّكر، أو أراد أن يكون شاكراً لنعم الله التي لا تحصى.

ومنها قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ ومعنى ﴿بروجاً﴾: منازل للكواكب السيارة ﴿سراجاً﴾: شمساً: ﴿خِلفةً﴾: أي يتعاقبان في الضياء والظلمة.

وهاتان آيتان من سورة الفرقان فيهما تنبيه إلى مظاهر إتقان صنع الله؛ في الشمس والقمر والنجوم وتعاقب الليل والنهار، وفي هذا المظهر من مظاهر صنع الله المتقن مجال واسع لعلماء الفلك الباحثين.

الفصل الثاني

صفَات الله سُبحانه وتعالى

مقدمة:

ظاهرة العمل المتقن تدل على صفة الإتقان لدى من قام به، فالقَصْرُ الجميل المُتْقَنُ في بنائه، المُتْقَنُ في هندسته، المُتْقَنُ في أثاثه وتزيينه، يَدُلّ بداهةً على أن من هندسه وأثثه وزينه مُتْقِنٌ، خَبِيرٌ بالهندسة، حَسَنُ الذوق في اختيار الأثاث، وتزيين القصور.

والمكنة الآليَّة التي تؤدّي عملها أداء جيّداً، تدل بداهة على أن مبتكرها وصانعها ذو معرفة بالآلات الصناعية وهندستها، وذو مقدرة على الابتكار.

والإتقان يسلتزم: العلم والحكمة، والحكمة هي حسن اختيار الاحتمال الأفضل من الوجوه المختلفة. ويستلزم أيضاً القدرة على التنفيذ.

فإذا بدت ظاهرة الإتقان في العمل، دلت هذه الظاهرة على أن من قام بهذا العمل لديه من العلم والحكمة والقدرة على التنفيذ، بمقدار ما يتطلب هذا العمل من علم وحكمة وقدرة، على أقل تقدير.

obeikandl.com

وظاهرة العمل الكبير الضخم الذي يتطلب قدرة عظيمة، تدل بداهة على أن من قام بهذا العمل الكبير، لديه من القدرة ما يكفي للقيام به، وقد يكون لديه أكثر من ذلك. وحين يحتال إنسان فيصل إلى المكان الخفي الخاص بتحريك قوة كامنة؛ فيضغط عليه ضغطاً يسيراً، أو يحرّكه تحريكاً خفيفاً، فتنفجر بذلك قوة هائلة مدمرة، أو صوت عظيم، أو تتحرك آلات كثيرة ضخمة، فإننا ندرك أن هذا الإنسان يملك من قوة الحيلة والمعرفة بمكامن القوة والمواضع الخفية لتحريكها؛ قدراً يكافىء العمل الذي قام به، لا سيما إذا استطاع تكرير عمله في مختلف الظروف، وعند الحاجة، وحسب الغاية، وتأكدنا أن عمله لم يكن حركة عشوائية.

إذن: فالعمل الذي يحتاج إنجازه إلى قوة، يدل إنجازه على أن من قام به لو لم يملك هذه القوة لما استطاع أن ينجزه. ومتى اجتمعت صفات القدرة والعلم وحسن الاختيار في موصوف واحد؛ كان ذلك دليلاً على أن هذا الموصوف حيٌّ لا ميت، ولا مادة عديمة الحياة.

وحين أرشد القرآن الناس فلفت أنظارهم إلى ظواهر هذا الكون؛ المملوء بالمتقنات العجيبة، والمحكمات الغريبة، والمصنوعات البديعة، التي لم توجد أنفسها بأنفسها، ولا تتحكم بذواتها بعد وجودها، فقد دلَّهم بذلك على أَن متقنها ومحكمها ومبدعها وصانعها قدير عليم حكيم حي.

وقد دلَّهم على أنه يرعى كونه بالتدبير الحكيم دائماً، وذلك لأن تصاريف أحداث هذا الكون وحركاته الدائمة مقرونة بالحكمة

والعناية، لذلك فلا بد أن يكون هناك مدبّر لأمره، ولا يملك تدبير هذا الكون الكبير إلّا محيط به حكمةً وعلماً وقدرةً، ومهيمنٌ عليه، ومسيطر على كلّ صغيرٍ وكبيرٍ فيه.

ومن كان كذلك كان هو المالك له، وهو الملك الحاكم على الأحياء فيه. وبهذا الترابط الفكري المقتبس من دراسة ظواهر هذا الكون، علمنا أن وراء هذه الظواهر خالقاً قديراً عليماً حكيماً مهيمناً، مدبّراً للأمر كلّه، مالكاً ملكاً، يفعل ما يشاء ويختار، لطيفاً خبيراً، سميعاً بصيراً رحيماً. وهكذا إلى سائر صفات الكمال لله تبارك وتعالى.

تفصيل الصفات والأسماء:

﴿الله﴾: اسم علم في اللغة العربية على الذات الإلٰهية الجامعة لجميع صفات الكمال، والمنزهة عن أيّةِ صفة من صفات النقصان التي لا تليق بكمال الألوهية والربوبية، ولذلك فهو أعظم أسمائه الحسنى.

ومن خواص هذا الاسم: أنه لم يسمَّ به غير الخالق جل وعلا، لا على سبيل الحقيقة، ولا على سبيل المجاز.

ولله تعالى في كل لغة اسم علم على ذاته، يجب تقديسه، واحترامه في تلك اللغة. فمن ذلك: (**طانري** ـ Tanri) في التركية، و(**خداي**) في الفارسية، و(**ديو**) في الإفرنسية، و(**كَدْ** ـ God) في الإنجليزية، وهكذا.

هذا، وبعد أن قام في أنفسنا دليل البداهة على وجود الله تعالى، وأدركنا ببعض البراهين العقلية والعلمية أن وراء هذه الظواهر الطبيعية خالق مهيمن على الكون، ومحرك له، ومُحْكِم لنظامه، وأن هذا الخالق هو المُمدّ لكل القوى، وهو المنشىء من العدم، وهو الذي إليه يرجع الخلق والأمر.

بعد إدراكنا لما سبق، لا بد أن يتفتح في أذهاننا وصف هذا الخالق الكبير بعدة صفات، نستطيع أن نستنتجها من خلال آثارها، وهي مستتبعة لصفات الحمد والتمجيد، هذا بالإضافة إلى المؤيدات النقلية التي جاء بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، من وصف الله تعالى بعدة صفات، وتسميته بعدة أسماء وصفية، تستطيع عقولنا أن تدرك وجودها وكمالها وتنزيهها، فيجب لله تعالى كلّ كمال إجمالاً، وهي على التفصيل عشرون صفة وتنقسم صفات الكمال إلى أربعة أقسام:

واحدة تسمى نفسية، وهي: الوجود.

وخمسة سلبية، وهي: الوحدانية، والقِدَمُ، والبَقَاءُ، ومخالَفَةُ الحَوادِث، والقيامُ بالنفس.

وسبعة معاني، وهي: القُدْرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام.

وسبعة معنوية: وهي: كَوْنُه قادِراً، مُريداً، عالماً، حيّاً، سميعاً، بصيراً، مُتكلِّماً. وأول هذه الصفات هي صفة وجوده تعالى.

أولاً ــ الصفة النفسية

هي ما لا تُعْقَلُ الذاتُ بدونها، والصفة النفسية لله تعالى

الواجب الوجود هي:

١ . «صفة الوجود»

لقد قام دليل البداهة ودليل العقل ـ كما سبق ـ على وجود الله جل وعلا، فاعتقاد أن الله سبحانه موجود، اعتقاد ملزم لكل ذي عقل لفتت الشرائع نظره إلى هذه الحقيقة؛ ومن ينكر وجود الله أو يشك به بعد التأمل والنظر، فهو أحد شخصين: إمَّا مجرمٌ مُعاند كنود مستكبر، وإمَّا فاقد العقل خالي التفكير.

ففي حكاية قول الرسل للأمم السابقة وهم يتعجبون من الشك في الله؛ يقول الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ثم إن صفة وجود الله تعالى من أولى الصفات التي يثبتها العقل، وتدركها البديهة، وإن عجزت العقول والأفهام عن تصور أو توهم حقيقة ذاته تعالى، وحقيقة صفاته سبحانه.

والوجود: نقيض العدم، وإدراك معناه بديهي لا يحتاج إلى توضيح، فكل ذي إدراك يدرك معنى وجود نفسه، كما يدرك معنى انعدام كثير من الأشياء غير الموجودة.

أسماء الله الحسنى التي تعود إلى معنى تحقق صفة الوجود لله تعالى:

وقد جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى أربعة أسماء تعود إلى معنى تحقق وجود الله تعالى؛ وهي: (الحق ـ النور ـ الظاهر ـ

الباطن)، وفيما يلي شرح هذه الأسماء:

اسم الله الحق:

الحق: هو الأمر الثابت الواجب الذي لا شك فيه، وهو ضد الباطل. فمعنى كون الله هو الحق: أنه هو المتحقق الثابت وجوده أزلاً وأبداً، الذي لا يتغير، ولا يتناقص، ولا يعرض لذاته شيء، وكل ما عداه من موجودات فهي موجودة بإيجاده لها، وهي في الأصل عدم وباطل، «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» أصدق كلمة قالها الشاعر العربي لبيد. قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

اسم الله النور:

أي: ظاهر الوجود، بما نصب سبحانه من الدلائل على وجوده في كل شيء.

فيرجع اسم النور إلى معنى: ظهور وجوده، ببرهان البداهة والعقل، كما أن النور ظاهر للعيون بدليل الحس، وهذا أحد معاني هذا الاسم. كما يحمل معنى: أنه هو المظهِر لغيره، إذ يوجِد الأشياء من العدم، ويكشف خباياها بنوره للناظرين، فيرجع إلى صفة من صفات الأفعال الآتية. قال تعالى في سورة النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

اسم الله الظاهر:

أي: الظاهر وجوده، وكمال صفاته، بما بثّ من الأدلة

والبراهين في مخلوقاته على وجوده، فما من شيء إلّا وهو يحمل آيات وجوده سبحانه، ودلائل قدرته وعلمه، وطائفة من صفاته البالغة ذروة الكمال. وثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «**أنت الظاهر فليس فوقك شيء**». وعليه فقد يكون الظاهر بمعنى العالي الذي لا شيء فوقه.

اسم الله الباطن:

أي: هو الباطن بحقيقة ذاته، إذ تعجز العقول والحواس بمقتضى تكوينها عن إدراك حقيقته جل وعلا؛ لأن الحواس والعقول صغيرة محدودة، والله سبحانه وتعالى كبير لا حدّ له. قال تعالى مشيراً إلى اسميه الظاهر والباطن في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**». وعليه فقد يكون الباطن بمعنى أنه أقرب إلى كل شيء من نفسه بعلمه وقدرته.

ثانياً ــ الصفات السلبية

وسُمِّيت بذلك لأنها تنفي عن الله تعالى ما لا يليق به مِن أضدادِها، وهي خمس: الوحدانية، والقِدَم، والبقاء، ومخالفة الحوادث، والقيام بالنفس، وسنشرح كل واحدة منها ونبيّن معناها.

٢ ـ صفة الوحدانية:

إننا حينما نمعن الفكر في هذا الكون، ونلاحظ وحدة نظامه من أبعد كوكب فيه عنا إلى أصغر ذرة من ذراته، ونلاحظ تسياره المحكم البديع دون خلل أو اضطراب، أو فساد في أرضه وسمائه، في حركة نجومه وكواكبه، في وحدة نظام مجراته، في كل جامد أو متحرك، في كل نام أو ذي حياة، في ترابط بعضه ببعضه ترابطاً تاماً، مع أن كل جزء فيه يعمل في نطاقه ومجاهله، دون أن يكون عمله هذا سبباً في فساد عمل أي جزء آخر من الأجزاء التي لا حصر لها في هذا الكون الكبير.

فدراسة ظواهر الكون دلّت على أن هذا الكون خاضع لقوانين واحدة، وأنه سائر ضمن خطط من الخلق لا تفاوت فيها. إن القوانين السائدة في الأرض هي القوانين السائدة في السماء، ثم إن الأرض وما فيها جزء مرتبط مع سائر ما في الكون، فهي خاضعة لنظام شامل، مسيطر على الكون كلّه.

وهذا يدلّ على أن الخالق المهيمن على الكون كلّه واحد، ولو أنه كان متعدداً لتباينت قوانين الكون ولتعارضت، ولانتهى الأمر بها إلى التصادم والفساد في الكون.

لذلك نعلم جازمين أن المهيمن على الكون كله، والمنظم له والمُوَجِّه لكل جزء فيه، واحدٌ لا يشركه في أمره شريك. وهذا المعنى هو ما نسميه «بصفة الوحدانية» أو «توحيد الربوبية»، أي: إن

الله واحد لا شريك له في الخلق والأمر والتدبير والملك، وغير ذلك من الصفات التي يدلّ عليها اسم الربّ.

وقد وصف الله نفسه في القرآن الكريم بأنه واحد في ربوبيته لا شريك له؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

وقال تعالى ـ يعلّم رسوله أن يقول للمشركين ـ في سورة صٓ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ۝٦٦﴾.

كما أقام سبحانه وتعالى الدليل العقلي على وحدانيته في ربوبيته؛ فقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ وفي هذا النص دليل على نفي الآلهة المشاركة في الكون الواحد.

وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ وفي هذا النص دليل على نفي الآلهة في الأرض دون إله العرش.

وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ وفي هذا النص دليل على نفي الآلهة المتعددة في أكوان متعدّدة.

ومضمون الدليل في الآية الأولى (آية الأنبياء) ـ بعدما قررت

الآية السابقة لها فكرة اتخاذ المشركين لآلهة من الأرض ينسبون إليهم إحياء الأموات ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ـ أنه لو تعددت الآلهة في الكون لفسد نظام السمٰوات والأرض، ولاختل تماسكهما القائم على وحدة نظام، ووحدة تسيير، وهذا من الأمور البدهية المشاهدة. لأن الإرادات الحرة إذا توجهت على مخلوق واحد فلا بد أن تتعارض، ومتى تعارضت تنازعت، ومتى تنازعت فسد نظام المخلوق، والكون كله مخلوق مترابط بوحدة نظام وتسيير ـ كما هو مشاهد ـ فلو كان آلهة أربابٌ غير الله لفسد نظامه، واختل وجوده وبقاؤه. وقد تضمنت هذه الآية في استدلالها برهاناً قاطعاً على نفي فكرة تعدد الآلهة الأرباب؛ وهذا البرهان الذي أوردته هو ما يسمى عند علماء التوحيد: (برهان التمانع). وبهذا يثبت لدينا عقليّاً: أن الرب الخالق ـ المنعم الرازق، المحيي المميت، الذي بيده الخلق والأمر، والنفع والضر، والخير والشر، وهو الذي يبتلي ثم يحاسب ثم يجازي ـ واحد لا شريك له.

ومضمون الدليل في الآية الثانية (آية الإسراء): أنه لو كان مع الله آلهة تحكم وتتصرف، وتحيي وتميت، وترزق وتشفي، ومن أجل ذلك تستحق أن تعبد ـ كما يقول المشركون ـ للزم أن تتخذ هذه الآلهة سبيلاً لمنافسة ومنازعة ومقاتلة إلٰه العرش ـ الذي يعترفون به رباً خالقاً، ولا ينكرون وجوده وقدرته، ولكنهم يشركون معه آلهة أخرى ـ لأن الربوبية المتضمنة لكمال التصرف وكمال القدرة، لا تقبل الخضوع والاستسلام لربوبية فوقها.

أما وإنها لم تتخذ هذا السبيل لإلٰه العرش، ورضيت بضعفها وإلٰهيتها المزعومة في نطاق الأرض، فإن ضعفها هذا من أكبر الأدلة

على أنها مخلوقة كسائر المخلوقات، وقد انتُحِلَتْ لها الإلٰهية انتحالاً باطلاً، لا يصاحبه دليل تقبله العقول.

لذا: فالله منزه عن الشركاء، له الإلٰهية وحده، وله الربوبية وحده، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ومضمون الدليل في الآية الثالثة (آية المؤمن) أنه لو كان مع الله إلٰه خالق آخر، لكان من أبسط النتائج البدهية أن يجمع كل إلٰه خالق مخلوقاته، ويذهب بها، متصرفاً فيها تصرفاً مستقلاً. ثم لَعَلا بعض الآلهة المتعددة على بعض ـ بمقتضى سيادة الألوهية واستقلالها ـ وأن كل واحد لا بد أن ينفذ مراداته ولو تعارضت مع إرادة غيره. ومن ذلك ينشأ التنازع، ثم غلبة الأقوى على الأضعف، ومن ثم يقال: الأضعف لا يصلح لأن يكون ربّاً، فليس هو بإلٰه. ولكن كلّ ذلك غير واقع؛ لأن الله واحد لا شريك له، وسبحان الله عمَّا يصفون.

وقد استخدم القرآن أيضاً بيانات خطابية غير برهانية للتنفير من الشرك، وأوضح فيها أن عقيدة التوحيد أكرم للإنسان وأصلح له من عقيدة الشرك. ومن هذه البيانات الخطابية قول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ومعنى ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾: متعارضون لا يتفقون ﴿سَلَماً لرجل﴾ خالصاً له لا يشاركه فيه أحد. أي: إنَّ عقيدة التوحيد تجعل الإنسان عبداً لإلٰه واحد فقط، أمَّا عقيدة الشرك بالله فتجعله عبداً لآلهة متعدّدة متشاكسةَ، وأيهما أكرم للإنسان: أن يكون عبداً لواحد فقط، أو عبداً لمتعددين؟!

إذا قسنا هذا بالأمثلة الإنسانية، وجدنا أنّ العبد الرقيق من الناس يفضل أن يكون ملكاً لرجل واحد، لا ملكاً لرجال متعدّدين متشاكسين لا يتفقون، لأنّ عبوديته للواحد أحبّ لنفسه وأكرم لها. فكيف يختار هؤلاء لأنفسهم عقيدة الشرك، مع أنّ عقيدة التوحيد هي الأكرم لهم، وهي العقيدة الحقة التي تدعمها الأدلة البرهانية؟!

وبأسلوب البيان الخطابي النفسي هذا ـ مع البيانات البرهانية السابقة ـ تمَّت محاصرة الإنسان المتجه للشرك محاصرةً تامَّة، فكريّاً ونفسيّاً، وبهذا الحصار تنقطع جميع أعذار المشركين.

ثمّ إنّ كون الله وحده هو الربّ الخالق المدبّر للأمر كلّه، ولا شريك له في ربوبيته، يستلزم عقلياً أن يكون هو وحده المستحق للعبادة والطاعة له فيما أمر ونهى، فلا يصحّ أن يعبد غيره، وكلّ عبادة لغيره شرك به، وإفراد الله وحده بالعبادة دون سواه، هو ما يطلق عليه عبارة: (توحيد الألوهية). وبهذا يتمّ الربط بين توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، ويشملهما جميعاً لفظ: (الوحدانية).

وصفة الوحدانية هذه: من صفات الله التي نادى بها جميع الأنبياء والمرسلين دون استثناء، وهي من الصفات التي تتقبلها بديهة العقل عند من لفت إلى الحقيقة الربانية أدنى نظر؛ وقد أعلنها جميع أصحاب الفلسفات المضيئة، وأقاموا عليها البراهين الواضحة، والحجج الدامغة.

لذلك فإننا في عقيدتنا الإسلامية: نؤمن إيماناً عميقاً راسخاً بأن الله وحده، لا شريك له، بيده الخلق، وبيده الأمر، وهو على كل شيء قدير.

وحيث إنه تعالى واحد، وبيده النفع والضر، فنحن لا نعبد غيره، ولا نشرك بعبادته أحداً.

وبذلك نستجمع في عقيدتنا:

1 ـ مبدأ توحيد الربوبية لله تعالى: فهو رب السمٰوات والأرض، لم يشركه في خلقها وتربيتها ومدّها بالبقاء شريك.

2 ـ ومبدأ توحيد الألوهية لله تعالى: فله تعالى الأمر والنهي، والحكم والقضاء، وهو الذي يستحق وحده العبادة، ولذا: فنحن نعبده وحده، ولا نشرك بعبادته أحداً. ومن توحيد الألوهية: عبادة الله وحده بما أمرنا أن نعبده به، على الشكل الذي أمرنا به، دون أن نخترع من عند أنفسنا عبادة لم يأذن بها.

ومن توحيد الألوهية: أن نُحَكِّم شريعة الله لنا في كلّ أعمالنا الفردية والجماعية؛ لأن الله سبحانه له الخلق، ومن له الخلق فله الأمر، وعبادة الله تكون بطاعته فيما أمرنا به وفيما نهانا عنه. وكلّ حكم على خلاف حكم الله يمثل استنكافاً عن طاعته في ذلك الحكم؛ فإذا كان ذلك طاعة لغير الله تعالى، فهو شرك بالله فيما هو من خصائص ألوهيته، وهو يمثل نقضاً جزئياً لتوحيد الألوهية، وإذا كان ذلك اتباعاً لهوى النفس، فهو لون من ألوان عبادة الهوى.

وأمام هذه الحقيقة من حقائق الألوهية التي نثبتها في عقيدتنا الإسلامية ـ وهي «أحدية الربوبية والألوهية» ـ تتضح نقطة خلاف كبرى بيننا وبين كثيرين من مثبتي الألوهية الضالّين عن منهج الحق؛ وتتحدد أمامنا طريق من طرق الافتراق بيننا وبينهم.

أما إثبات أصل الربوبية فهم مشتركون معنا فيه، ولكنهم افترقوا عنا:

أ ـ إما بإثبات أرباب متعددين غير الله تعالى يتقاسمون الخلق والتكوين، بينما نحن نثبت أن الله وحده الخالق ولا خالق سواه.

ب ـ وإما بإثبات آلهة غير الله تعالى لهم نوع تصرف في أمور الكون، فهم بذلك يستحقون العبادة مع الله تعالى، بينما نحن نثبت أن الله وحده هو الإلٰه الحق، المتصرف في كل شيء، ولا يستحق أحد سواه العبادة، مهما كان شأنه، ومهما ارتفعت منزلته.

فالمجوس مثلاً: يعتقدون بالرب الثنائي.

والنصارى: يجعلون الرب ثلاثياً، مركباً من ثلاثة أصول (الأب، والابن، والروح القُدُس) تجتمع وتفترق في صورة لا يمكن أن تهضمها العقول، وينسبون لله الزوجة والولد، تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

وبعض الناس من الوثنيين: يعتقدون بأرباب كثيرة جداً. وبعض الوثنيين الآخرين: يعتقدون بالآلهة المتصرفة التي تستحق العبادة مع الله تعالى، فيعبدونهم ليقربوهم من الله زلفى.

وكل هذه المعتقدات: معتقدات باطلة مردودة، لا يمكن التسليم بها إلا في حالة تعطيل العقول عن التفكير، وشد الأفهام بعصائب من التقليد الأعمى، أو تغشيتها بحجب كثيفة عن الهوى الجامح، والغرض الجانح.

أما عقيدتنا: فلا إلٰه إلا الله، ولا رب ولا خالق سواه، ولا يستحق العبادة أحد غيره.

فكلّ من أشرك بالله، فجعل معه آلهاً آخر، سواء كان من أهل الأوثان، أو ينتسب إلى أي دين فهو كافر؛ لأنه بعقيدته هذه قد خالف قطعاً أصول الدين الذي ينتسب إليه، وناقض في اعتقاده الفاسد الباطل مبادئه المنزلة الصحيحة، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17] وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: 73].

ولمَّا كان الشرك في العبادة يستلزم في مضمونه عدم توحيد الربوبية، اقتضت حكمة تصحيح عقيدة المشركين الرجوع بهم إلى الأدلة التي تثبت وجود الله وتفرده بالربوبية؛ لتكون هذه العقيدة الصحيحة هي الأساس لتصحيح الفقرة الثانية من العقيدة الإسلامية، وهي فقرة توحيد الألوهية، أي: إفراد الله الخالق وحده بالعبادة، وإثبات أنَّ أية عبادة لغيره شرك به جلّ وعلا، وكفر بحق إفراده بالعبودية الذي يستلزم التشكك في تفرده بالربوبية وخصائصها في الخلق والرزق، والحياة والموت، والنفع والضر.

أسماء الله الحسنى التي تعود إلى معنى تحقق صفة الوحدانية لله تعالى:

وقد جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى: اسمان يعودان إلى معنى تحقق صفة الوحدانية لله تعالى؛ وهما (الواحد ـ الأحد)، وفيما يلي شرح هذين الاسمين.

اسم الله (الواحد): أي المنفرد الذي لا شريك له، فهو الواحد في ذاته وفي صفاته، وهو وحده المستحق للعبادة. قال الله تعالى في سورة صٓ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾.

اسم الله (الأحد):

وهو كالواحد، وقد ورد في بعض الروايات أنه من أسماء الله الحسنى الـ (99) المأثورة. فليس من الأسماء المجمع على أنها من التسعة والتسعين المشهورة؛ لكنه من أسماء الله الواردة في الشرع قطعاً، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾.

٣ و٤ ـ صفتا القِدَم والبقاء

تعريفهما: القِدَم معناه عدم وجود أول له فلا بداءة لوجوده، والبقاء معناه عدم الآخِريَّة له سبحانه وتعالى فهو الدائم الذي لا يقبل الفناء ولا يلحقه العدم: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ [الحديد: 3] قال ﷺ: «**أنت الأولُ فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء**».

برهانهما: إذا فرضنا أن له أول وأنه كان مسبوقاً بعدم، فلا بُدَّ من مؤثِّر في إيجاده، ومُحال أن يكون إلٰهاً، وحينئذٍ فالإلٰه هو السابقُ عليه والمُوجِدُ له، فيكون هو القديم، أو أن يكون هذا السابق أيضاً مسبوقاً بعدم، وله مُوجِدٌ أوجده... وهكذا يستلزم ذلك فرض التسلسل، وهو باطل بالبرهان العلمي، فلا بُدَّ إذن من أن تكون الموجودات كلّها مستندة في وجودها إلى ذات واجبة الوجود مؤثرة في غيرها غير متأثرة بسواها، وذلك يستلزم اتِّصافها بالقِدَم.

آثارهما: ومَن عَلِمَ أن الله قديمٌ باق، وأنه هو الأول والآخر الخالق لجميع الخلق، وأنه مَسبِّبُ الأسباب، وأن الكُلَّ منه وفقيرٌ مُحتاجٌ إليه، قطع أمله من كل ما سوى الله من مخلوقات، ولم يَعُدْ يلتفت إليها لأنها مخلوقة مثله مفتقرة محتاجة إلى الرب الأول الغني، وفانية لا تملك لنفسها البقاء ولا النفع ولا الضر وعلق قلبه وأمله بالله رب العالمين، وعلم أن فضله ورحمته سابقة وأنه يبتدىء بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذْ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأي وسيلة كانت هناك، وإنما هو عدم مَحْضٌ، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الانسان: 1] فمنه سبحانه الإعدادُ، ومنه الإمْدَادُ، وفضله سابقٌ على كل الوسائل، والوسائلُ مِنْ مُجَرَّد فَضْلِهِ وَجُودِهِ، وإليه المَرْجِعُ والمَصيرُ والمآلُ، فإن نَعِمَ فبفضله وكرمه، وإن عاقب فبعَدْلِهِ. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾ [يونس: 3، 4].

إنْ مَنْ عَلِمَ أن العَوالِمَ كلَّها مِن خَلْقِ اللَّهِ ابتداءً وأنها في قَبْضَتِهِ في كل وقت وإن مصيرها إليه، وأنه محيطٌ بها لا يفوته منها شيء ولا يُعجِزُهُ أَمْرٌ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۗ﴾ [الإسراء: 60] ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾ [البروج: 20] عَرَف أن العُلُوَّ والعظمة له وحده ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255] وَشهِدَ للَّهِ بالرُبُوبِيَّةِ وأصْبَحَ مِن واجبه أن يُؤدِّيَ حقَّ اللَّهِ عليه، وحَقُّ اللَّهِ على

العَبْدِ أن يُوَحِده بالعبادة والخضوع والطاعَةِ، فلا يعبدُ ربّا سِواه ولا يخضع، ولا يحبّ، ولا يرجو، ولا يخشى، ولا يتوكل على شيءٍ دونه، وسَعَى للمطالب العالية، والمراتب السامية وهي رضوان الله ومحبته التي لا تُنَالُ إلا بطاعته، فإنَّ ما عِندَ الله لا يُنالُ إلّا بطاعته، ومَن كان للَّهِ كما يُريد، كان اللَّهِ له فَوْقُ ما يُريدُ، فَمَن أَقْبَلَ إليه تَلقَّاهُ مِن بَعيدٍ، ومَن توكّل عليه واستعان بقوّته أَلَانَ له الحَدِيدَ، ومَن تَرَكَ الحرامَ لأَجْلِ مَرْضَاتِهِ أعطاهُ من الحَلال فوقَ المَزيد، ومن عَرَف ربّه قَصَر حُبَّه على مَن سَبَقَ فضلُه وإحسانُه كلَّ فضل، وعامَلَهُ وَحْدَه، وآثرَ رضاه، فالعارِفُ بالله هو مَنْ جعل حُبَّ اللَّهِ ومَرضاتَه كَعْبةَ قَلْبِهِ التي لا يزالُ بها طائِفاً، ويا فَوْزَه وسيادته إنِ اطّلعَ اللَّهُ سبحانه على قلبه ماذا يفيضُ عليه من النِعَم والإفضال، فمن جلَّى اللَّهُ صدأ بَصيرَتِهِ، وكمّل فطرته، أَوْقَعَهُ على مبادىء الأُمُور وغاياتها، ومصادرَها ومواردها، وأورثه كنزين عظيمين: **(الأول)**: الإخلاص في الأعمال، فلا يعود يرى في أعماله أحداً سِوَى اللَّه، **(والثاني)**: المحبة، فيصبح همّه إرضاء محبوبه بجميع تصرّفاته وسكناته وأقواله وأفعاله، فهو يعيش دائماً مع الله، ولا يرى في الكون أحداً سِوَاه، وراقبه في كل شؤونه وأحواله، وهذه درجة الإحسان، وهي أعلى درجة يبلُغها العبد المؤمن.

٥ ـ صِفة مخالفة الحوادث (المخلوقات)

تعريفها: معناها أن اللَّهَ تعالى لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته، وأنه مُنَزَّهٌ عن النقصان، مُتَّصِف بكل كمال.

الدليل النقلي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

[الشورى: 11] والكاف للمبالغة في نفي الشبه لله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 1 ـ 4]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: 255].

الدليل العقلي: بعد أن أثبتنا بالأدلة النقلية والعقلية وجود خالق لهذه الأكوان، وأن جميع المخلوقات حادثة، تتصف بالتَغَيُّر والحركة، والزيادة والنُقصان، والجمع والتفريق، والتناكُح والتناسُل، والضَعف والعَجْز، والحاجة إلى إمْداد دائم بأسباب الحياة كالماء والهواء، والطعام، والنوم والراحة، وأنه لا بُدَّ لكل المخلوقات من خالق أوْجَدَها من العدم، ولذلك فإنه يستحيل عقلاً أن يكون الخالق المؤثّر بالمخلوقات من نوعها، أو أن يتصف بصفاتها، أو يكون مشابهاً لها بأي وجه من الوجوه. فلا يمكن أن يكون له سبحانه أبٌ أو أمّ أو جَدٌّ، أو زَوْجَةٌ أو وَلَد، أو أن يكون بحاجة إلى أكل أو شرب أو نوم، أو مكان يوجد فيه، أو زمان يجري عليه؛ لأنه سُبحانه أوْجَد هذه الأشياء فكيف يحتاجُها وهو خالقها، وقد كان غنياً عنها قبل أن يَخْلُقها، وهو الآن على ما عليه كان، وهو الغني الحميد.

ولو كان الخالق سبحانه يُشْبِه شيئاً من مخلوقاته لكان مثلَها في احتياجه إلى خالق يخلقها من العدم، وإمْدادٍ مستمرّ بأَسباب العيش والبقاء، سُبْحَانه وتعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

وقد أرسل الله جميع الأنبياء والرسل منذ بدء الخليقة ليؤكّدوا هذه الحقيقة في تنزيه الخالق سبحانه، وأخبر الجميعُ أُممَهم أن الإلٰه مُنَزَّهٌ لا يَتَجَسَّدُ في صورة إنسان أو حيوان أو جماد، أو أن يحلّ في شيء أو أحد، أو أن تكون له زوجة أو أب أو أم أو ولد، أو أن تأخذه سِنَةٌ أو نَوْم، أو أن يحتاج للطعام والشراب أو نحو ذلك من صفات المخلوقات وليُظهروا للنّاس انحراف الوَثَنِيين والمُجَسّدين والمُشَبِّهة الذين شبّهوا الله بخلقه فكفروا ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: 100 ـ 101].

ولكن بعض المذاهب والمِلل والنحل وأهل الأديان ممّن آمن بوجود الخالق لهذا الكون بما فيه لم ينزّهوا الخالق عن مشابهة مخلوقاته، ووصفوه بصفات لا تليق بجلاله وعظمته، فانحرفوا بذلك عن الإيمان الصحيح الذي ينزّه الله بثلاثة أمور:

1 ـ مبدأ صمدية الله تعالى.

2 ـ مبدأ استحالة التولّد له.

3 ـ مبدأ تفرّده بصفات الكمال.

١ ـ الصمدية:

ولها معنيان: **(الأول)** أنه الله سُبحانه هو الذي يُصْمَد إليه أي يُرْجَعُ إليه في كل شيء؛ لأنه القادر على كل شيء والفعّال لما يريد، والذي بيده الخلقُ والأمرُ والجزاء، فلا لجوء لأحد سواه.

(الثاني) أن الله بذاته غني عن كل شيء؛ لأنه متّصف بالكمال في كل شيء، فوجوده ذاتي لم يسبقه عدم، ولا يلحقه الفناء، وهو غني عن أن يمدّه أحد بأسباب البقاء أو النفع أو الشهوة أو الغريزة؛ لأنه منزّهٌ عن كل ذلك، فهو الغني بذاته وصفاته، والكل مفتقر إليه، وهو الكامل في قدرته وعلمه وحكمته، يفعل ما يشاء ويختار، يرجع إليه أمر كل شيء وتقديرُه، وهي صفة مستقلّة بذاتها سنأتي للكلام عنها تحت عنوان «قيامه بنفسه» بتوسُّع.

٢ ـ مبدأ استحالة التولُّد والولادة.

للتولُّد معنيان:

أولاً: الانفصال، فالتولُّد في المخلوقات هو انفصال جزء خاص من الأصل يحمل عوامل وصفات صورة وجنس الأصل ليكون فرعاً مشابهاً له، ثم ينمو في بيئته وعلى حسابها حتى يداني أصله في صفاته، كالنباتات، والحيوانات والإنسان، فشجرة البرتقال مثلاً كما هو مشاهد تثمر برتقالاً يحمل بذور البرتقال، ولو زرعنا هذه البزور فإنها يتولد منها برتقالاً على صورة الأصل وجنسه وليس تفاحاً، ولا عنباً، ولا بطيخاً ولا حيواناً أو إنساناً ولا أيّ شيء آخر يخالف جنس وصفات هذه النبتة، وكذلك الحيوانات، كما هو مُشاهد، فإن الأرنب يلد أرنباً من جنسه وصفاته والخروف يلد خروفاً، ولا يلد أسداً أو نمراً أو ذئباً أو جملاً أو نسراً أو نباتاً أو إنساناً أو غير ذلك، وكذلك الإنسان، فإنه يلد إنساناً، ولا يلد حيواناً أو نباتاً.

ثانياً: التحوُّل والتَوَلُّد أيضاً ينشأ عن تفاعلات كيميائية تتمّ عقب تقارب بين عنصرين أو أكثر فيتولد عنها مركّبات جديدة بكل خصائصها، بحيث تنعدم صفات العناصر الأساسية الأولى، أو تكمُن، وتحدث صفات جديدة تظهر من اخْتِباء، أو تولّد ينشأ عن حركات فيزيائية، كتحوّل المادّة إلى طاقة، أو تكثّف الطاقة إلى مادّة، ويصاحبه التغيّر والتحوّل، ويعود إلى معنى الانقسام الجزئي أو تغير التركيب بشكل كلّي.

برهان فسادهما: هذان المعنيان للتولُّد يستحيل عقلاً أن يجتمعا مع مفهوم الألوهية؛ لأن معنى الإلٰه الحقّ أنه الخالق الأوّل لكل شيء، ولا بدّ أن يكون الوجود هو الأصل بالنسبة إليه، ولا بُدّ عقلاً أن يكون وُجودُه ذاتياً، وألا يكون مَسْبُوقاً بعدم، أو أن يكون قبله شيء، أو أن يطرأ عليه حدوث أو تغيير؛ لأن التغيير يحمل معنى الحدوث. فكيف يكون الأصل في الوجود متولّداً عن غيره؟ ولو كان متولّداً عن غيره لكان ذلك الغير هو الأصل، ولكان مسبوقاً بعدم، وإنما طرأ عليه الوجود بعد أن لم يكن موجوداً، وهذا يتنافى مع مفهوم الأُلوهية، ويرفضه العقل رفضاً باتاً.

الولادة: وكما أن الإلٰه الحق يستحيل عقلاً أن يتولّد عن غيره، فكذلك يستحيل أن يتولّد منه غيرُه بالمعنى الذي تتولّد منه المخلوقات، فالإلٰهُ الحقّ لا يمكن عقلاً أن ينفصل عنه شيء أو يتغيَّر ويتحوّل ليتولّد منه شيء.

برهان فسادها: أنّ قابليةَ الانقسام والانفصال والتغيُّرِ تؤدّي إلى انعدامِ وَحْدَةِ الأصل وكيانِها وتغيّر صفاتها، وهذا لا يكونُ إلاّ في

المخلوقات الحادثة، وعلى فرض أن الإله اتخذ ولداً كما يزعم البعض فإن هذا الولدَ سيكون إلٰهاً أيضاً، لأنه متولِّدٌ من إلٰهٍ، والولادةُ كما ذكرنا ينتج عنها مولود يحمل صفات وجنس الأب، فلا يتولدُ منه إنسانٌ أو حيوانٌ أو نباتٌ بل إلٰهٌ؛ لأن أباه إلٰهاً، وهذا الولدُ يستحيل عقلاً أن نَسَمِّيَهُ إلٰهاً لأنّ من صفات الإله الكمال في القِدَم، والأزليةَ، وعَدَمَ الحدوثِ، وألاّ يكونَ مَسْبوقاً بعدم، وألاّ يوجدَ قَبْلَه أحدٌ أَوْجَدَهُ من العدم بعد أن لم يكن موجوداً، ومن صفاته أيضاً البقاء والخلود وعدم الموت والقوّة المطلقة والقدرة الفائقة التي لا تُغالَب، ثم كيف سَيُولَدُ هذا الولدُ من غير أمٍّ فلا بُدّ أن يكون للأب زوجة ينتج عن اجتماعهما الولد. وهذه الزوجة أيضاً يجب أن تكون من جنس الأب. لأن التزاوُج لا يتم إلا بين زوجين من جنس واحد، فهذه الزوجة إذن يجب أن تكون إلٰهةً، وتتّصف بكلّ صفاتِ الإله، ويَنْطَبِقُ عليها ما ينطبقُ على الولد، فاستحال أن يكون لله زوجة أو ولداً، وأما ما يصدُرُ عن الإله الحق من أشياء فإنما يصدُرُ عنه بالخلق والأمر وهما عملان من أعمال قدرته تعالى وفق إرادته الحكيمة.

دليل النقل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: 82] ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: 100، 101].

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن: 3].

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1 ـ 4].

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢﴾ [الصافات: 151، 152].

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: 171]

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [مريم: 35].

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ [المؤمنون: 91].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾ [الإسراء: 111].

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: 88 ـ 93].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: 1 ـ 5].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ

﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: 30].

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: 72 ـ 74].

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75].

لقد أرسل الله الرُسُلَ جميعهم ليَهدوا أقوامهم إلى الله خالقهم ومعبودهم وليعلّموهم كيف يُنَزِّهوه عن تشبيهه بمخلوقاته، وعن وصفه بأية صفة من صفات النقص أو الشهوة أو الضَعْف أو الشرك، وليُعلِنوا توحيده بالربوبية والألوهية، فهو وحده الربّ المعبود، وله الخلق والأمر، وهو منزّهٌ عن الوالد والولد والزوجة والشريك، سبحانه وتعالى، تفرّد بجبروته وكبريائه، وأقاموا الحجّة والبُرهان على كل مُعْتَقد باطلَ يخرج بالإنسان عن الإيمان الصحيح بالله.

٣ ـ مبدأ انفراد الربّ بصفات الكمال

تعريفه: إن من الصفات الواجبة للإله انفراده بالكمال فيستحيل

وجود شيء معه يكافئه أو يُدانيه، سواء في أصل الوُجود، أو في كمال الصفات، هذا هو المقتضى الحتمي لمعنى الربّ الخالق.

برهانه: لإيضاح هذا المبدأ سننظر إلى المخلوقات من حولنا، فما من شيء إلا وله أشباه ونظائر، وجانب قوة وجانب ضعف يمكن التغلّب عليه من خِلالِهِ، لنشاهد مثلاً الكتل الماديّة الكبيرة كالجبال والبحار، فإننا نرى قُوَى صغيرة لا يؤبَه لها تستطيع أن تحرّكها أو تفجّرها، وتبدّدها.

ونشاهد وحوشاً ضخمة مفترسة مخيفة، ثم نرى حيوانات صغيرةً أو حشرات تتناول منها مكان ضعف فتُلْقيها صريعة تنفض روحها من جسدها.

ونشاهد النارَ ذات القوة الهائلة على إحراق المناطق الواسعة والغابات الشاسعة ثم نرى موادّ في الكون تُخمد لهيبها وتكافحها وتطفئها.

ونشاهد دولاً وملوكاً جبّارين في الأرض كفرعون وأضرابه، يتطاولون إلى مقام الربوبية ويفرضون سُلطانهم بقوة السلاح والإرهاب على الشعوب الضعيفة، ثم يُسلط الله عليهم أفراداً يزلزلون عروشهم أو كوارث أرضية كالزلازل والبراكين والأعاصير والأمراض الفتّاكة المعدية تُبيدهم من الوجود، ليصبحوا آثاراً خَرِبَة فَيَعْتَبِرُ بها أولو الأبصار وهكذا فما مِن قُوَّةٍ في هذا الكون إلّا وتماثلها قوّة، أو لها نقطة ضعف، أو لها ضِدّ.

وقد قام دليل البرهان العقلي والنقلي كما سبق على وجود

خالق لهذا الكون، خَلَقَهُ وأبْدَعَهُ على نظام رائع، وحكمة فائقة وتدبير حكيم، وقُدرة قاهرة، ومما لا شكّ فيه عقلاً أن هذا الإله الخالق لا يشبه هذا الكون، ويستحيل أن يكافِئَه أي مخلوق من مخلوقاته وليس هو أي جزء فيه، ولو كان جزءاً من الكون لكان من الممكن أن يكافئَه جُزْءٌ آخرُ منه وِفْقَ قَوانين الكون المشاهَدة فيه، وبِحَسَبِ الاستقراء في كل شيء، ومتى وُجِدَ المكافيء أمكن أن يَغْلِبَه. أو أن تتعارض قِواهما بحيث يُعَطِّلُ كلُّ طرفٍ منهما الآخرَ، وبذَلك يفسد الكون، ويختلّ نظامه، فاستحال إذن أن يشارِكَ شيءٌ مِن هذا الكونِ الخالقَ في كماله وعظمته وقدرته وسائر صفات كماله، ووجب أن ينفردَ الربُّ وحده بها.

ولو أنَّ لِكُلِّ مخلوقٍ مُدْرِكٍ حيٍّ مُريدٍ قدرةَ الخالق وسائر صفاتِ كماله، لاستطاع أن يُبْقِيَ لنفسه الحياة إذا أراد اللَّهُ له الموت، هذا هو الإنسان، يتمتّع بالحياة، والعلم والإرادة، والقوّة، وهي من صِفاتِ الكمال لله، ولكنها عند الإنسان مَحْدودةٌ بحدودٍ وقُيود خلقها الله فيه للقيام بمهمّة الاستخلاف في الأرض، وشتّان بين علم الإنسان وعلم الله، فعلم الله مُحيطٌ بكل شيء، وذاتيٌّ غير مكتسب، بينما علمُ الإنسان مسبوق بجهل، ومكتسب، ومحدود بحدود معرفته وطلبه للعلم، وكذلك حياة الإنسان فهي حادثة بعد عدم، ومحدودة بأجل ومكتسبة من الخالق واهب الحياة، وكذلك قدرة الإنسان، فهي ضعيفة مكتسبة محدودة وكذلك إرادته، هل يستطيع هذا الإنسان أن يختار زمن ولادته أو مكانها أو كيفيتها أو جنسها ذكراً أم أنثى، أو أن ينتقي لنفسه أبَوَيْن كما يشتهي، أو أن يختار الصورة الحسنة التي يتمنّى أن يكون عليها، وهل يستطيع أن يدفع عن نفسه السوء أو

المرض أو الموت أو أن يجلب لنفسه الرزق والسعادة دائماً، أو الخلود؟ إذا كان هذا الإنسان وهو المستخلف في الأرض والمفضَّل على جميع الكائنات، والمسخّر له كل شيء في الأرض لا يستطيع شيئاً من ذلك؛ لأن قوّة قدر الله غالبة عليه، فأي شيء آخر يمكن أن يكون كفواً لله الأحد؟ قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الصمد: 4].

إنَّ كلَّ الكائنات مخلوقةٌ مغلوبةٌ لِلَّهِ شاءت أم أبت، خاضعة لقضائه وقدره وقهره وتدبيره ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 18].

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: 16] ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾ [الحشر: 23].

آثارها: إن مَن يتحقق لديه من صفاتِ اللَّه تعالى أنّه سبحانه مخالف للحوادث نَزَّهَهُ عن مشابهتها تنزيهاً تاماً، ولا يمكن أن يقع في خطإ تشبيه الله جلَّ وعلا بمخلوقاته، أو تشبيه مخلوقاته به، ومن ثَمَّ فلا يمكن أن يتّخِذ غيرَ اللَّهِ إلٰهاً، أو يعبد معَ الله أحداً، أو ينسب له الزوجة أو الولد أو الشريك، أو يقع في تصوّره أن الله بحاجةٍ إلى شيءٍ، أو بحاجة إلى عباده أو إلى صلاتهم وصيامهم وصدقاتهم وحجّهم وقرابينهم وأضاحيهم، بل يعلم يقيناً أن هذه العبادات هي لمصلحة العبد، ويعود ثوابها عليه، وفيها اختبار كمال عبوديّته وطاعته لله.

٦ ـ صفة قيامه تعالى بنفسه (الصمدية)

معناها: أنّه تعالى غَيْرُ مفتقر إلى أحد أو شيء كمُوجِدٍ يوجِدُه، ولا إلى مَحَلٍّ يقوم به، وزمان يجري عليه، فقد كان تعالى قبل وجود أي شيء وقبل وجود المكان والزمان أي الأفلاك التي تحدّد سَيْرَ الوقت.

دليلها النقلي والعقلي: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: 2] أي: الذي لا يحتاج إلى شيء، وكلُّ شيءٍ محتاجٌ إليه. فيكون لها معنيان: معنى سَلْبي ومعنى إيجابي:

أ ـ المعنى السلبي: وهو أن الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن كل شيء، متّصفٌ بالكمال التام في كل شيء، فهو واجب الوجود الذي له الوجود الذاتي، فلا يسبقه عدم، ولا يلحقه الفناء، إذِ الأصل له الوجود، فهو غَنِيٌّ عن أن يمدّه بالبقاء أحد، كما أنه غنيٌّ عن أي شيءٍ يتّصل بمطلبٍ يعودُ عليه بنفع أو فائدة، أو إرضاء شهوة، أو إشباع غريزة؛ لأن الله جلّ وعلا مُنَزَّهٌ عن ذلك، وأمّا الذي يحتاج إلى شيء من ذلك فهو الإنسان ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: 1] وهو الذي أصلُه العَدَمُ، وإنما وُجِدَ بإيجادِ اللَّهِ له، وعَلى صورة مليئةٍ بالغرائز والاحتياجات والطبائع والشهوات، والذي يحتاج وجوده باستمرار إلى إمداد الخالق، عن طريق الأسباب التي هيّأها له من بيئته، وعلى وفق مراده وحكمته التي نظّم بها مخلوقاته.

ب ـ المعنى الإيجابي: وهو أن الله سُبْحَانه هو الذي يُصْمَد

إليه، أي يُرْجَعُ إليه في كلّ أمر؛ وذلك لأنه هو المُتصفِ بجميع صفات الكمال، فهو القادر على كل شيء، والفعّال لما يريد، والذي بيده الخلقُ والأمرُ والجزاء، وما مِن قُوَّةٍ لغيره تعالى إلا بِهبَةٍ منه، إذا شاء أبقاها، ومتى شاء سلبها، لذلك فلا رُجوع في أي مطلَبَ لمن تدبَّر وعقل إلاّ إلى الله تعالى.

وهذان المعنيان لمفهوم صَمَدِيَّة الله تعالى يوضحان أساسَيْن رئيسين من أسس المفهوم الحقيقي للألوهية: ذلك أن الإلٰه الحقّ هو الغنيُّ بذاته وصفاته الذي لا يحتاج إلى شيء. والكامِلُ في قدرته وعلمه وحكمته، الذي يفعل ما يشاء ويختار، والذي يرجع إلى قدرته وحده فِعْلُ كلّ شيء وخلقُ كل شيء وتقديره.

آثارها: حين يُدرِكُ المؤمنُ العاقِلُ هذه الحقيقة عن مفهوم الألوهية فإنه يرجعُ إليه تعالى في كل حاجة من حاجاته، ولا يرجع لأحد سواه؛ لأن اللَّهَ هو الغني المطلق، والخلق فقراء محتاجون إليه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 15] بيَّن اللَّهُ سبحانه في هذه الآية أن فقر العِباد إليه أمر ذاتيٌّ لهم لا ينفكُّ عنهم، كما أن كونَه تعالى غنيّاً حميداً، ذاتِيٌّ له. فغناه وحمده ثابتٌ له لذاته، لا لأمرٍ أوجبه، وفقرُ مَن سواهُ إليه ثابتٌ لذاته، لا لأمرٍ أوجبه فلا يعلَّلُ هذا الفقرُ بحدوثٍ ولا إمكان، فكما أنه يستحيل ألّا يكون الربّ إلّا ربّاً، والعبد إلا عبداً فيستحيل ألا يكون الربّ إلّا غنياً، والعبدُ إلّا فقيراً.

أنواع الفقر: والفقرُ فقران: اضطراري، واختياري.

أما الفقر الاضطراري: فهو فقرٌ عامٌّ من جميع المخلوقات إلى

ربوبيّته ولا خروجَ لبَرٍّ ولا فاجِرٍ عنه، فالخلقُ كلّهم فقراء محتاجون إلى الله خالقهم وبارئهم شاؤوا أم أَبَوْا، في الإعْداد أصلاً بالخلق والإيجاد، وفي الإمْداد في كل لحظة بأسباب الحياة وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً ولا ذمّاً ولا ثواباً ولا عِقاباً، بل هو بَمْنزلَة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً.

والثاني: فقرٌ اختياري وهو فقر أنبيائه وعباده الصالحين إلى ألوهيته، وهو نتيجة لِعِلْمَيْنِ شريفين: أحدهما معرفة العَبْدِ بِرَبِّه والثاني: معرفته بنفسه، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان انْتَجَتَا للعبد فَقْراً هو عَيْنُ غِناهُ وعُنوان فلاحه وسعادته. ويتفاوتُ الناسُ في هذا الفقرِ بِحَسَبِ تفاوُتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربَّه بالغِنَى المُطلق عَرَف نفسه بالفقر المُطلق، ومَن عرف ربه بالقدرة التامَّة، عرف نفسه بالعجز التامّ، ومَن عرف ربَّه بالعِزّ التامّ، عرف نفسه بالمَسْكَنَةِ التامة، ومَن عرف ربَّهُ بالعلم التام والحِكمة، عرف نفسه بالجهل التامّ.

فاللَّهُ سبحانه وتعالى أخرج العبد من بطن أمّه لا يعلم شيئاً، ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئاً، ولا يقدر على عطاءٍ ولا مَنْع، ولا ضُرٍّ ولا نَفْعٍ، ولا شيءٍ ألبتَّة، فكان فقرُهُ في تلك الحال أمراً مشاهداً محسوساً لكلِّ أحَدٍ، وما ذاكَ إلا لطبيعته وذاته فهو عَبْدٌ مخلوقٌ فقيرٌ بذاته إلى بارئه وفاطره وخالقه الغنيِّ بذاته.

فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً، وخلعَ عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمعَ والبصر والفؤاد وعلَّمه وأقْدَرَهُ، وصرَّفه وحرّكه، ومكّنه في

الأرض، وسَخَّر له كل ما في الأرض من جماد ونبات وحيوان، فحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشَقَّ الأرض، وأعلى البُنْيَان ظنّ المِسْكينُ أنَّ ليس له ربّاً مالكاً له، ولما حَوْلَهُ، فنظر إلى المخلوقات نظر طمع وملك ونسي الخالق، وظنّ أن له نصيباً مِن الملك، وادّعَى لنفسه مِلكاً مع الله سبحانه، ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى، ونَسِيَ أصله وما كان فيه من حالة العدم والفقر والحاجة والضعف حتى كأنّه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأنّ ذلك شخصاً غيره.

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بِشْرٍ القُرَشِيّ أن رسول الله ﷺ بَصَقَ يوماً في كَفّه، فوضع عليها أَصْبُعَهُ ثم قال: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم! أَنَّى تُعْجِزُني وقد خَلَقْتُك مِن مِثل هذه، حتى إذا سَوَّيتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيتَ، بَيْنَ بُرْدَين، وَللأرض منكَ وَئِيدٌ ـ وهو صَوْتُ شِدَّةِ الوَطءِ على الأرض ـ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حتَّى إذا بَلَغَت ـ الروحُ ـ التَراقِيَ ـ وهي عظامٌ بين ثغرة النَحْر والعاتِقِ أي حَضَرَهُ المَوْتُ ـ قلتَ: أتصدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ**»، ومِن هاهنا خُذِلَ مَن خُذِلَ، وَوفِّقَ مَنْ وُفِّقَ، فحُجِبَ المَخْذُولِ عن حَقِيقَتِهِ، ونسِيَ نفسَهُ، فَنَسِيَ فَقْرَهُ وحاجَتَهُ وَضَرُورَتِهِ إلى رَبِّه، فَطَغَى وَعَتَى، فَحقَّتْ عليه الشَقاوةُ قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: 6، 7] فذكر موجب الطغيان، وهو رؤية غِنى نفسه واستغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: 5 ـ 10].

فأكمل الخلقِ أكملُهم عُبُودِيَّة لله، وأعْظَمهم شُهوداً لِفَقْرِهِ إليه،

وحاجَتِهِ إلى رَبِّه، وعَدَم استغنائه عنه طَرْفَةَ عَيْن. ولهذا كان من دُعائه ﷺ: **«اللهم أصلِحْ لي شَأْنِي كُلَّه، ولا تكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْن، ولا إلى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ»**. أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٤٢ وأبو داود.

وأخرج الترمذي عنه ﷺ أنه كان يَدْعُو: **«يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قَلْبِ على دِينكَ»**، فإنه ﷺ كان يعلم أنّ قلبه بيد الرحمٰن عزّ وجلّ، لا يملكُ منه شيئاً، وأن اللَّهَ سبحانهُ يُصَرِّفُه كيف يَشاءُ، ولذلك أَسْلَمَ نَفْسَهُ لله، ورفع حاجته إليه بحسب معرفته به، وقُرْبِهِ منه ومنزلته عنده، ولهذا كان أقربَ الخَلْقِ إلى الله وَسِيلَةً، وأعْظَمَهُمْ عنده جاهاً، وأَرْفَعَهُمْ عنده مَنْزِلَةً، لتكميله مَقام العبودِيَّة والفقر إلى ربّه: وكان يقول: **«أيها الناس! ما أُحِبُّ أن تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي، إنما أنا عَبْدٌ»** رواه الطبراني بإسناد حسن، وأخرجَ البخاري أنه كان يقول: **«لا تُطْرُونِي كما أَطْرَتِ النَّصَارَى المَسِيحَ ابنَ مَرْيَم، إنما أنا عَبْدُ اللَّهِ ورَسُولُهُ»**.

ولذلك ذَكَرَهُ اللَّهُ تعالى في أشرف مقاماته باسم العبودية ونسبهُ لنفسه؛ لأنه تحرَّر من العبودية لغير الله، وأخلص عبوديته لله، وأسلم روحه لله تعالى فاسْتَحَقَّ أن ينسِبَهُ اللَّهُ إليه فقال: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1] وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: 19] وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: 23].

وفي حديث الشفاعة المتفق عليه عند الشيخين البخاري ومسلم

أنه حين يفزع الناس إلى الأنبياء ليُخفِّفَ اللَّهُ عنهم طولَ الوُقوفِ في المَحْشَر فيأتون عيسى فيقولُ: «**اذهبوا إلى محمد، عَبْدٍ غَفَرَ اللَّهُ له ما تقدَّمَ مِن ذنْبِهِ وَمَا تأخَّرَ**» فنال ذلك المقامَ بكمال عُبُودِيَّتِهِ لله، وبكمال مغفرة الله له.

من هو الفقير: إذا تأمَّلنا قول الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 15] نَجِدُ أَنَّ اللَّه يُبيّنُ للناس أن فَقْرَهُم إليه إجبَارِيٌّ سواء رَضُوا أم لم يَرْضَوْا بذلك، وهذا فقرٌ إلى الربوبية.

ولكنّ الفقر الاختياري المطلوب من الناس أن يُعلنوه ويعتقدوه هو الفقر إلى ألوهيته، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو مقصودنا. فالفقير هو الذي يُعلن أن الله هو صاحِبُ المُلْك حقيقةً، ويُعلن أنه مملوكٌ لله، وليسَ مالِكاً لنفسه أو لشيءٍ بوجه من الوجوه، ويرى أعماله مُسْتَحَقَّةً عليه بصفته مَمْلوكاً مأموراً فيما أمره به سَيِّدهُ، فَنَفْسُهُ مملوكَةٌ، وأعْمالُهُ مُسْتَحَقَّةٌ بموجَب العُبُودِيَّة، كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عبداً ثم عَلَّمَهُ صَنْعَةً ثم قال له: اعْمَلْ وأَدِّ إليَّ، فليس لكَ ولا في كَسْبِكَ شَيْءٌ، فلو حصَل بيد هذا العَبْدِ من الأموال ما حصل، لم يَرَ لنفسه فيها شيئاً، وأنها أمْوالُ سَيِّدِهِ.

أخرج الشيخان البخاريُّ ومسلمٌ، وأحمدُ في «المسند» أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**وَاللَّهِ إني لا أُعطِي أحداً ولا أَمْنَعُ أحداً، فاللَّهُ المُعْطِي وإنّما أنا قاسِمٌ، أضَعُ حيثُ أُمِرْتُ**». فهو عبدٌ متصرِّفٌ بأمر اللَّهِ المَحْضِ، فَاللَّهُ هوَ المالكُ الحقُّ، وكلُّ ما بِيَدِ خَلْقِهِ هو من أمْوالِهِ وأمْلاكِهِ وخزائنه أفاضها عليهم بِمَحْضِ فَضْلِهِ وكَرَمِهِ

ولِيَمْتَحِنَهُم، هَل يكون ذلك مِنْهُمْ شاهِداً على العُبُودِيَّةِ للَّهِ ﷻ فَيبذُلُ أَحَدُهُمْ الشيءَ رَغْبَةً في ثوابِ اللَّهِ ورهْبَةً مِن عقابه، وتَقَرُّباً إليه وطلباً لمرضاته؟ أم يكون البذلُ والإمساكُ منهم صادراً عن مراد النفس وغَلَبَةِ الهَوَى ومُوجِبِ الطَمَع، فيُعْطِي لهواه ويمنع لهَواه؟ وغايتهُ الرغْبَةُ فيما عند الخلقِ مِن جَاهٍ أو رِفْعَةٍ أو مَنْزِلَةٍ أو مَدْحٍ، أو الخوف مِن ضياع مَصْلَحَة؟

ولو عَرَفَ الإنسانُ نَفْسَهُ حَقَّ المعرفةِ لَعَلِمَ أنه مَمْلُوكٌ مُمْتَحَنٌ في صورةِ مَلِكٍ مُتَصَرِّفٍ، وأنه مُسْتَخْلَفٌ عن الله في أرضه ومُلكه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴿١٤﴾﴾ [يونس: 14]. وحقيق بهذا المُمْتَحَنِ أن يُوَكِّلَ إلى ما اتَّكَلَ عليه، فمن توكَّل على الله كَفاهُ وأغناه، وكان له في جميع أحواله وشؤونه، في دنياه وآخرته، ومن توكل على غيره لم يحصل إلّا على الحِرْمان؛ لأنّ كلَّ شيءٍ سِوَى اللَّه باطلٌ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: 166]، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88] و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: 26 ـ 27].

وهذا مشاهَدٌ في الدنيا فكُلَّما تَغَيَّرَ عَهْدُ حاكم من الحكّام، وتنصّب حاكم جديد أتى برجاله، وخَلَعَ رجال العهد القديم، فزالت دَوْلَتُهُمْ وزال مَن كانوا يعتمدون عليه ويتوكَّلون عليه في أرزاقهم ومعاشهم وعزهم في الدنيا، ولم يبق في يدهم سِوَى الحِرْمَان، لذلك أمَرَ اللَّهُ العَبدَ أن يُعَلِّقَ قلبَه بالحي الباقي الذي لا يحولُ ولا يزولُ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: 58].

هٰذا في الدنيا، وكذلك الشأنُ في الآخرة، ففي الحديث القدسي أن الله تعالى يقول يومَ القيامة: «**أَلَيس عَدْلاً مِنّي أني أُوَلّي كل رَجُلٍ منكم ما كان يَتَوَلَّى في الدنيا**» فَيَتولَّى عُبّادُ الأصنام والأوثان والفلاسفة والزعماء أصنامهم وأوثانهم وفلاسفتهم وزعماءهم فتتساقط بهم في النار ويتبرّأون منهم، ويتولى عابدوا الشمس والقمر والنجوم آلهتَهم، فإذا كُوِّرت الشمسُ، وانتثرتِ النُجومُ اضمحلّت تلك العبادة وبطلت، وصارت حسرةً عليهم ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: 78] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: 167].

الفَقر المَمْدُوح هو أن لا يرى صاحِبُه مُلْكاً إلّا لمالكه الحقّ، ذي المُلْك والمَلَكُوتِ وأن يرى نفسه مُفوَّضاً فيما يملك في الدنيا، وأميناً عليه، كما كان الأنبياء والصحابة، فهذا سُليمان عليه السلام آتاهُ الله مُلكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ من بعده فقال، ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ [صّ: 35]، ويوسف عليه السلام حينما صار عزيز مصر فإنه ردّ الفضلَ إلى الله فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 101] وذو القَرْنين الذي سئل بعد أن مكّن اللّهُ له في الأرض وآتاه مَن كل شيء سبباً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: 86 ـ 88].

إنّ عدم وجود المال في يَد الإنسان لا يَقْدَحُ في فَقْرِهِ، وإنّما يقدحُ في فقره استغناؤه به إذا حصّله، ورؤيَتُه لِمِلْكِهِ فَيَتَلَوّثُ باطنُه

بأوساخ المال وتعبه وتدبيره، وتتعلّقُ به نفسُه ويُحِبُّه وَيَعْشَقُه حتى يَصيرَ أكبرَ هَمِّه ومَبْلَغَ عِلْمِهِ، فإن أُعطِيَ رَضِيَ، وإنْ مُنِعَ سَخِطَ، فهو عَبْدُ الدينارِ والدِرَهم والدولار، يُصبح ويُمسِيَ مَهْمُوماً، يَبيتُ مُضاجِعاً له، يفرحُ إذا ازداد، ويَحْزَنُ إذا نَقُص، بل يكاد يمرض إذا توهَّم الفَقْر، وقد يموتُ أو يتوقفُ قلبه إذا فَقَدَهُ، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: 6 ـ 8].

وأما الافتِقارُ الحقيقي النافِعُ للعبد، فهو افتِقارُه لله خالقه ومولاه، الذي بيده خزائن السمٰوات والأرض، واستغناؤه به لا بالمال، فإذا أصابته مصيبة في نفسه أو ماله تذكر أنه وديعةٌ عنده فاسترجع وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» و«لا حول ولا قوة إلا بالله».

درجات الفقر: والفقر على ثلاث درجات **أولاها**: عدم طلب المال والنساء والولدان والجاه والسلطان لأنها وسائل للعيش وليست غايات، وإنما الغاية الحقيقية للإنسان في حياته هي عبادة الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: 56 ـ 58] وهو فقر الزهّاد، وعلامته نفض اليد من الدنيا وما فيها وفراغ القلب منها. وإذا كانت مُتَحَصِّلة لديه فهي في يَدِهِ لا في قَلْبِهِ، وإذا لم تكن متحصّلةً لم يطلبها سؤالاً وحِرْصاً، وهذا الإعراض وعدم الطلب دليل على سقوطها من قلبه، إذْ لو كانت في قلبه لطلبها.

وينتج عن ذلك إسكات اللسان عنها ذمّاً ومَدْحاً؛ لأن مَنِ اهتمَّ بأمرٍ، وكان له في قلبه شَغَفٌ وتَعَلُّقٌ وَمَوْقِعٌ اشتغلِ اللسانُ بما فاض على القلب من أمره، فإن حَصَلَتْ له مَدَحها، وإنْ فاتَتْه ذَمَّها، فَمَنْ

أحَبَّ شيئاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، لذلك فإنّ علامة مَحَبَّةِ اللَّهِ كَثْرَةُ ذِكْرِهِ، فَعَلى الإنسانِ أن يُخَلِّي من القلب كلَّ مَن سِوَى اللَّهِ من المخلوقات، وأنْ يَمْلأَه بحبّ اللَّهِ، فيفيض ذلك ذكراً على لسانه، وقد امْتَدَحَ اللَّهُ عِبادَه الذاكِرِينَ له في محكم كتابه الكريم فقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35] وأمر عبادَه المؤمنين أن يُكثروا من ذِكْرِهِ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: 41] وهذه الدرجة تسمى درجة الخُلُوّ والتجريد الباطِنِ، وصاحِبُها مُتوسِّطٌ بين دَرَجَتيْ الداخلِ بكلّيته في الدنيا، الراكنِ إليها، المطمئن إليها، المُتَّخِذِها وَطناً، الجاعلها سَكناً، وبين من نفَضَهَا بالكُلّيّة من قلبه ولسانه، وتخلّص من قُيودِها، وارْتَقَى إلى ما يَسُرُّ القلب ويُحْيِيهِ ويُفْرِحُه من جَذَباتِ العِزّةِ.

والدرجة الثانية من الفقر: وهي أرفَعُ من الأولى؛ لأن في الدرجة الأولى يَتَخَلَّى العَبْدُ بفَقْرِه عن أن يَتَأَلَّه غيرَ مَوْلاهُ الحقّ، وأن يُضَيِّعَ أنفاسه في غير مَرْضَاتِهِ، وأن يُفَضِّل عليه أحداً، فَيُوجِبُ له هذا صَفاءَ العُبودية، وعَمارةَ السِرِّ بينه وبين الله، وخُلوصَ الوُدِّ، فيُصْبِحُ ويُمسِي ولا هَمَّ له غير ربِّه، وقد نَسَخَتْ مَحبَّتُهُ له من قَلْبِهِ كلَّ محبَّةٍ لسواه، قال الشاعر:

قد كان قلبي ضائعاً قبل حُبّكُمُ ... فكان بِحُبِّ الخَلْقِ يَلْهُو وَيَمْرَحُ

فلما دَعَا قَلبِي هواك أَجَابَهُ ... فَلَسْتُ أراهُ عن شُهودِك يَبْرَحُ

وكل شيء سِوى الله يستغني به الإنسان من مال وأملاكٍ وجاه وسلطان إذا دَخَلَ القَلْبَ لوَّثَهُ، وحَرَمَهُ حياته ونعيمه، فالقلبُ لا

سَكَنَ له إلا بالله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: 28] ولا راحةَ للإنسانِ ولا سُرورَ ولا أمْنَ إلا بالتَقَرُّب مِن الله، فالإنسان الذي افتقر إلى الله واستغنى به عمّا سواه باشر قلبَه بشاشةُ الإيمان وحلاوَتُه، وذاقَ طَعْمَ المَحَبَّةِ، وشاهد أنوار الحقِّ، فلزم مولاه، وأفنى نفسه وروحه بطاعته وذكره ومحبته، فنال درجات القُرْبِ، وهذا هو المطلوبُ من السَيْرِ إلى الله والسلوكِ لحضرته، وهو الغاية التي شمَّر إليها السالكون، ودَنْدَنَ حوله العارفون، عند ذلك يشعر المؤمنُ أنّ أيَّ شيء سِوَى الله يَتَسَلَّلُ إلى قلبه، يكون حِجاباً يَحْجُبُه عنه، فيبادرُ إلى إفراغ قلبه منه، وعدم التعلّق به، مع ملاحظة أن الفضل في صفائه وإخلاصه إنما هو لله، وبمحض مِنّته وجوده وكرمه، فلا يرى العبدُ لنفسه في هذه الحالة فضلاً ولا يغترّ بحاله فيهلك.

والدرجة الثالثة من الفقر: وهي أعلاها عِنْد أرباب السُّلوك وأهل الطريق إلى الله، وهي أن لا يشاهدَ العبدُ ولا يُلاحِظ أثراً للموجودات والمخلوقات، بل يشاهد آثار موجدها وخالقها وإرادته في كل شيء، لأن الكون كلّه في قَبْضَةِ الحق سبحانه، يُقَلِّبُه كيف يشاء، وهذا هو التوحيد الخالِصُ.

فلا يعودُ العبدُ يرى نفسه مُسْتَبِدّاً أو مُسْتَقِلاً بأمر من الأمور، ولو في نَفْسِهِ ولَمْحَتِهِ وَطَرْفَةِ عَيْنِهِ ونَظْرَتِهِ، وخاطِرِه، بل كل ما يجري معه ومن حوله هو بإرادة الحقّ سبحانه، وتدبيره وتقديره ومشيئته وخلقه، وعند ذلك يشعر العبد بالافتقار التامّ إلى الحيّ القيُّوم، ويَشهَدُ أن كل ذرّة في الوجود مُفْتَقِرَةٌ إلى الربّ جل وعلا،

فَيُسَلِّمُ نَفْسَهُ بالكامل لله، ويرضى بما قضاه وقدَّره، ويتلقّى أوامره بمنتهى المحبَّة والرضا والإقبال والشغف والتَلذُّذ بذلك فيُقْبِل على طاعَتِه بكُلِّيَّته، ويأنَس بجانبه، ويَأْمَنُ بقربه، ويَسْعَدُ في حضرته.

وإنما يصحّ هذا الفقر بمعرفتين: معرفة العبد لربه، ومعرفته لنفسه، فمن عرف أن الله ربّ العالمين، عرف نفسه بأنه عبد مُطيع، ومن تمّت له هذه المعرفة اتّصف بالفقر إلى الله، فاغتنى به عمّن سواه واعتزّ به، وتقوّى به، وأَنِسَ به، ولا يتمُّ له ذلك إلّا بالتبرُّؤِ من التَجَبُّر والتَكَبُّر، لأنهما يناقضان العبودية، وينافيان الإسلام، فالجبّار هو الله، والكبرياء له سبحانه وتعالى، وهما من صفات الإلٰه وليستا من صفات العبد.

وهنا قد يتساءل البعض، ما هو دور الإنسان المُريد الذي مَنَحَهُ اللَّهُ إرادةً وكَسْباً وعملاً واختياراً سَيُحَاسَبُ عليه يوم القيامة؟ والجواب أن الإنسان المؤمن الصالح هو الذي لا يختار بإرادته في الدنيا اختياراً مُخالِفاً لإرادة الله وما يُرضيه، بل يُوَجِّه إرادته لفعل ما يُرضِي الله سبحانه ويرى قيامَه بأفعاله وصدورها منه كَسْباً واختياراً وفق ما شرع الله وأمر ونهى في دينه، وأنزله في كتبه بواسطة وحيه على رسله فَيُخْضِعُ إرادتَه لإرادة الله، ويجاهد نفسه وهواه ووساوس الشياطين في سبيل مَرْضاة ربّه، وهٰذه هي حقيقة الإيمان، والدور الصحيح المطلوب من الإنسان ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: 37 ـ 41].

ثالثاً ــ صفات المعاني

هي كل صفة قائمة بذاته سبحانه وتعالى تستلزم حُكماً معيَّناً له، كَصِفَةِ العلم مثلاً، فهي تستلزم أن يكون المتصِفُ بها عليماً، وصفات المعاني لله تعالى كثيرة، ولكنّها تجتمع في سبع صفات رئيسية معيّنة قام عليها الدليل التفصيلي من الكتاب والسُنّة، وهي: الحياة، الإرادة، القدرة، العلم، السمع، البصر، الكلام.

1 ـ صفة الحياة

تعريفها: هي صِفَةٌ أزلية قائمة بذاته سبحانه وتعالى.

دليلها العقلي: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255] ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: 65] والحيُّ هو ذو الحياة، وكونُه حيّاً نتيجة لثبوت صفة الحياة له. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: 26، 27].

دليلها العقلي: إن حقيقة النظام الكوني تضطر العاقل إلى الاعتراف بخالق لهذا الكون متّصفٍ بالقدرة والكمال، قويٍّ حيٍّ قادرٍ، مُريد مُهَيْمِنٍ، ولكنّ المُلحدين ينسبون هذا الخلق لِقوّة كبيرة مجهولة يُسمّونها «الطبيعة» فإذا سُئِلوا عمّن خلق الكون، قالوا: «الطبيعة» وأغمضوا أعينهم عن البحث العلمي الصحيح والمنطق العقلي السليم، الذي يوجب أن يكونَ الخالق الواهب للحياة في المخلوقات الحية، والقادر على نزعها منهم، أن يكون هو حيّاً؛ لأن الحياة من صفات الكمال التي تُعْتَبَرُ أساساً لصفات العلم والإرادة

والقدرة والحكمة، فلا يمكن أن يكون الخالقُ المُريدُ العالمُ القادرُ الحكيمُ جامداً ميتاً لا حياة له، بل لا بُدَّ عقلاً من اتِّصافه بصفةِ الحياة.

وحياةُ اللَّهِ تعالى لا يمكن أن تُشْبِه حياتَنا، فحياتنا لها بداية ونهاية، وحياة اللَّهِ أزلية أبديّة، وحياتُنا مستمدَّةٌ من الخالق، وحياته تعالى ذاتية، وحياتنا تحتاج باستمرار إلى مدد الخالق، وحياته تعالى أزلية أبدية سرمدية صمدية مستقلة، لا تحتاج إلى أحد أو إلى شيء لاستمرارها، ولا إلى مُمِدٍّ يُمدِّها، لأن ما يحتاج إلى إمداد فهو ناقص، أما الله تعالى فهو كامل في ذاته وصفاته.

أثرها: ومن عَلِمَ أن الله هو الحيُّ، المِمِدُّ للحياة، علم أن روحه وحياته بيدِ اللَّهِ خالِقِها وبارِئِها، فَلَمْ يَعُدْ يَخشَى أحداً إلّا الله، ولم يَعُدْ يهابُ الموتَ ويخشى الرَّدى، بل يعيشُ شجاعاً غيّر هيّابٍ ولا وَجِلٍ ولا خائِفٍ ولا جَبَانٍ، مِقْداماً يَقْتَحِم الصِعَابَ، ويخترق الصُفُوفَ طالباً للشَهَادَةِ، مُجاهِداً في سبيل الله يُقدِّمُ رُوحَه فِداءاً لخالقها وبَارئها في سبيل إعلاء كلمته ونُصْرَةِ دينِهِ، وما ذلك إلا لعلمه وإيمانه أن الله أعدَّ للشهداء في سبيله حياة كريمَةً وجنَّةً عرضها السمٰوات والأرض: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: 169].

كما أنّ من اعتقد المؤمن بأنَّ اللَّهَ هو الحيُّ الذي لا يموتُ، لم يُعَلِّقْ قَلْبَهُ بالأمواتِ والمخلوقات الفانِيَةِ، ولا بالأشياءِ الزائلة، ولا بالماديَّاتِ العابِرَة، ولم يخلُدْ إليها وَيَرْتَحْ بها، وإنما تعلق باللَّهِ ربّ العالمين، ووثق به وتوكل عليه، وخافه ورجاه، وطلب رضاه،

وتوجَّه بكُلِّيَتِهِ إليه، وصارت حياته كلّها طاعة لربه، ووفق شرعه ودينه الذي ارتضاه.

2 ـ صفة الإرادة

تعريفها: الإرادة في اللغة مُطلق القصد، ويراد بها المشيئة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: 29] فما شاءَ الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

واصطلاحاً: هي صِفَةٌ أزلية قائمة بذاته تعالى من شأنها تخصيص الممكنات (أي المخلوقات) على وِفْقِ عِلْمِهِ وإرادته ببعض ما يجوز عليها من إيجاد وإعدام وتكييف، فالله يخلقُ الشيء بقدرته وفق مراده وعلى التخصيص الذي يشاؤه من حُسن أو قُبْح، علم أو جهل، طُولٍ أو قِصَر، في هذا المكان أو غيره، فالله سبحانه يتصرّف في جميع ما خلقه حسب إرادته ومشيئته، ولا يكون شيءٌ إلا وفق ما أراد.

دليلها النقلي: من القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: 40] وقوله ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: 68] وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: 6] وقوله جل جلاله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ۖ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل

عمران: 26] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: 107].

دليلها العقلي: نحن البشر إذ لاحظنا أنفسنا نرى أنّ لنا إرادةً جزئية محدودة، فإذا أردنا عملاً ما من الأعمال إرادةً جَازِمَةً، توجّهت قُدْرَتُنا في داخلنا إلى تنفيذ ما أردناه، كما أننا إذا لم نُرِد عملاً ما، لم تتوجّه قدرتُنا إلى تنفيذ ذلك العمل، ونحن نعلمُ بالضرورة أن وجود صفة الإرادة فينا أكمل مما لو كنّا فاقدي الإرادة.

هذا وبعد أن آمنا بالفطرة السليمة، وبالبراهين والأدلّة العقلية والنقلية كما سبق أنّ الله هو خالِقُنا ومُصَوِّرُنا، فهل يمكنُ عقلاً أنْ يَهَبَنا الخالق العظيم صفة الإرادة الجزئية المحدودة، ويكونَ هو غيرُ مُريدٍ؟ بمعنى أن تكون أفعاله مُكْرَهاً عليها، أو أن تجريَ منه بالطبع دونَ أن تكون له القدرة على التغيير أو التبديل؟ إن هذا أمرٌ مستحيل عقلاً، وتعالى اللّهُ الخالقُ عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

لذلك فإننا نعتقد أن صفة الإرادة، وهي من صفات الكمال عقلاً ـ لا بُدَّ أن تكون من صفات الله سُبْحانه وتعالى، الذي خلقنا ومَنَحَنا صفة الإرادة الجزئية المحدودة.

وينبغي ألّا يَغيبَ عن بالنا أن إرادة اللّهِ سُبحانه ليست مثل إرادتنا الصغيرة، المحدودة في نطاقها الضيّق، بل هي إرادة شاملة تتعلق بما يريده الخالق من جميع الأمور الممكنة عقلاً.

آثارها: إنّ مَنْ يلاحظ أن الله يفعل ما يشاء وما يختار، ويراقب ذلك في نفسه باستمرار، ويضع نُصْبَ عينيه وقلبه أن إرادة الله غلاَّبَة، وأن مَشِيئَةَ كُلِّ ذي مشيئة تابِعَةٌ لمشيئته تعالى، إنّ مَن يلاحظُ ذلك ويراقبه في حياته يعمل دائماً على أن يرضى ويحبَّ ما أراده الله له ورِضيَه مِن صحَّة أو مَرَض، مِن غِنًى أو فقر، من رَفْع أو خَفْض، مِن لَذّةٍ أو ألَم، مع سَعْيه في دَفْع أو رفْع ما أمَرَ اللَّهُ أنْ يُدْفَعَ، ثم يُرِيحُ نفسه بالرضا عن مُراد الله، وهو يسألُ اللَّهَ الخَيْرَ حيثُ كان، ويَعْلَمُ أنه لا قُدْرَةَ له ـ ولا لأحد من البشر ـ على تحقيق مُرادٍ لم يُرِدْهُ اللَّهُ، أو دفع مُرادٍ أراده الله في كونه، وفي التحقّق بهذا المقام بلوغ سعادة عظمى في الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع.

3 . صفة القُدْرَة

تعريفها: القُدْرَة في اللغة القُوَّة والاستطاعة. وفي اصطلاح علماء التوحيد: هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى من شأنها إيجادُ كلِّ مُمْكِنٍ وإعدامُهُ وتكييفه وفق ما خصّصته الإرادة أزلاً.

دليلها النقلي: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: 40]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: 1] وقدرةُ الله سبحانه وتعالى لا تُشْبِهُ قدرات البَشَر، فَقُدْرَتُه تعالى قدرةٌ كاملة لا يعتريها عَجْزٌ ولا فُتُورٌ، وهي شاملة لجميع الموجودات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45] فلا يُعْجِزُه شيءٌ سبحانه وتعالى، ولا يَفُوتُه شيء، ولا يَحُولُ دُونَ إرادته شيء، يخلق ما يشاءُ ويفعل ما يُريدُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا

يُرِيدُ﴾ [هود: 107] وقدرتُه سُبحانه ذاتيّةٌ غيْرُ مُسْتَمَدَّةٍ من شيء، ومُطْلَقَةٌ لا يَرِدُ عليها قَيْدٌ، والبَشَرُ وإن وُصِفُوا بالقُدرة والقُوَّة، فإن قُواهم وقُدُواتِهِم مُسْتَمَدَّةٌ من الخالِق، ومَحْدُودَةٌ قاصِرَةٌ.

دليلها العقلي: إن التأمُّلَ اليسير في السمٰوات والأرض والليل والنهار، والحياة والموت، وما يجري في كل لحظة من شؤون، يهدي إلى معرفة القدرة الباهرة؛ لأن العمل الكبير الضخم يتطلب قُدرةً عظيمة، تدلُّ بَدَاهَةً على أن الخالق لهذا الكون الكبير لديه من القدرة ما يكفي للقيام به، فَخَلْقُ هذا الكون الكبير بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وما فيه من حركة وسكون ونظام ما هو إلا دليل على قدرة الله سبحانه وعظمته، قال تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٤٨] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قٓ: 38].

ولو لم يتّصف الله تعالى بالقُدرة لاتَّصف بضدّها وهو العجز، ولو كان مُتّصفاً بالعجز لما ظهر شيء من هذا الوجود، وبما أن هذا الكون موجود وظاهر، ووجوده يُنافي العجز فتثبتت القدرة لِلَّهِ سبحانه وتعالى.

ولله تعالى تسعة أسماءٍ من أسمائه الحُسْنَى تعود إلى معنى تَحَقُّق صِفَةِ القُدْرَةِ الكاملة لله تعالى، وهي: (القويُّ، والمَتينُ، والقادِرُ، والمُقْتَدِرُ، والواجد، والعزيز، والمقيت، ومالك الملك، والمَلِكُ والوارثُ).

أما القَوِيُّ: فهو ذو القُوَّة الكاملة، الذي لا يُعْجِزُه أَمْرٌ مُمْكِنٌ

في إيجادٍ أو إعدام، ولا يَمَسُّه نَصَبٌ، ولا يلْحَقُهُ ضَعْفٌ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: 66].

وأما **المتين** فهو ذو المَتانَة الكاملة، والمتانَة أبلغ من مطلق القوة، لأنها القوّة الزائدة. فمعنى المتين: الذي له كمال القوة التي لا تُعارضها ولا تشاركها ولا تُدانيها قوّة، كما لا يَعْرِضُ لها عَجْزٌ ولا تَعَبٌ ولا تناقُض في التصرّف بكلّ أمْرٍ مُمْكِن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: 58].

وأما **القادر** فهو ذو القدرة الكاملة، والقدرة صفة من شأنها أن يكون لها أثر كإيجاد الأشياء أو إعدامها، أو التصرّف في الموجودات بِجَمْعها أو تفريقها أو تحويلِها أو أي أثرٍ ما فيها. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: 65].

وأما **المقتدر** فهو ذو القُدْرَةِ الكامِلَةِ. والمقتدر أبْلَغُ من القادِر، أَخْذاً من زيادة المبنى قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45].

وأما **الواجد** فهو ذو الجِدَةِ الكامِلَة، وهي الغِنَى بما يملك فيه قُدْرَةُ التَصَرُّف، فلا يحتاج إلى مُسَاعِدٍ ولا مُعِين، فمعنى الواجِد: القادرُ على التصرُّف في كل شيء وفق مُرَادِه، لأن كل شَيْءٍ حاضِرٌ مَمْلُوكٌ له.

وأما **العزيز** فمعناه ذو العِزَّةِ الكامِلَةِ، والعِزَّةُ هي القُدْرَةُ على التَغَلُّب. فمعنى العزيز الغالبُ الذي لا يُغْلَبُ؛ لكمال قوّته وقدرته. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: 66].

وأما **المُقِيتُ** فهو في اللغة الحافظ للشيء والشاهد والمُقتَدِرُ، فيكون بمعنى المُسْتَوْلِي القادِرُ على كلّ شيء، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: 85].

وأما **مالك الملك** فهو المتصرّف بالأمر والنهي، الذي تَنْفُذ مَشِيئَتُه في مُلْكِهِ كيف يَشاء، لا مَرَدَّ لِقضائه، ولا يكون ذلك، إلاّ من كمال القُوّة والمَتَانَة والقدرة والعزّ والغنى قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: 26].

وأما **المَلِكُ** فمعناه المُتَصَرِّف بالأَمْر والنَهْي في كل شيء، فإذا قال للشَّيْءِ «كُنْ» وُجِدَ ذلك الشَيْءُ على حَسْب مشيئته تعالى، وأنه هو الحاكم الذي يَرْجِعُ إليه تكليفُ عِبادِه بالأَمرِ والنَهْيِ، فَيُنَزِّلُ لهم الشَرَائِعَ والدياناتِ، لِيَبْتَلِيهُمْ أَيُّهُمْ أَحَسَنُ عَملاً، وهذا يرجع إلى كمال القُدْرَةِ على التَصرُّفِ بالمُمْكِنَاتِ، وكمال القدرة على تنفيذ المَثُوبَة للطائعين، والعُقوبَة للعاصين، قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: 114].

وأما **الوارث** فمعناه الذي يرجِعُ إلى مِلكِهِ كلُّ شَيْءٍ، وقد جعل لبعض عبيده تملكاً صُوَرِيّاً، وهو الذي تعود إليه كلّ الأشياء المملوكة ومالكوها مع أن الحقيقة أن ملك اللّهِ للأشياء كلّها مُسْتَمِرٌّ لا ينقطع لأن الله هو الذي له كمال القدرة على التصرّفِ بها ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:

١٦] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: 40]، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر: 23].

آثارها على العبد: فمن عرف أن اللَّهَ هو القادر رجع في كل شيء إلى قدرته تعالى، مُتَوكِّلاً عليه، فلم يَعْظُم عليه مطلب، بل يَهُونُ في نفسه كل أمر، لأنه ينظر إلى قُدْرَة قادر عظيم يستمدّ منه العون والتوفيق، ويعتمد عليه في تحقيق ما يرجو من خير وسعادة.

بين القدرة والإرادة: الإرادة صفة من شأنها تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه في العقل كالإيجاد والإعدام، والقبح والجمال ونحو ذلك، وأما القدرة فمن شأنها تنفيذ ما خصصته الإرادة كإخراج الممكن من العدم إلى الوجود فعلاً إذا توجّهت الإرادة لإيجاده، أو صرفه من الوجود إلى العدم إذا توجّهت الإرادة لإعدامه ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: 40].

4 . صفة العلم

تعريفها: هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، من شأنها كشف الأمور والإحاطة بها على ما هي في الماضي والحاضر وما ستكون عليه في المستقبل، من غير سبق جهل.

فعلم الله سبحانَه شامل مُحيطٌ بكل شيء، إجمالاً وتفصيلاً، ظاهراً وباطِناً، غير مسبوق بجهل، ولا يعتريه نسيان، ولا يمكن أن يخالف الواقع، وهو يعلم الغَيْبيّ والمشهود، والقريب والبعيد والقاصي والداني، ومحيط بكل شيء يُجَلّي بواطِنَه وخوافِيَه، ويكشف بداياته ونهاياته، ويعلم ذاته وصفاته، ولا يستطيع أحدٌ

الإحاطة بعلم الله أو بشيء منه إلا إذا شاء الله ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255].

دليلها النقلي: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: 89] ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: 4] ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ [فصلت: 47] ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]، وآيات كثيرة، فهو يعلم عَدد حبّات الرمل، وأوراق الأشجار، وذرّات الوجود.

دليلها العقلي: إذا نظرنا إلى الإتقان العجيب، والإحكام الغريب في هذا الكون الكبير، ولاحظنا أن ما يجري فيه بالتسلسل والتتابع، يجري وفق تنظيم رائع لا ارتجالَ فيه ولا مُصادَفَة، كما أننا إذا نظرنا إلى أنْفُسنا، وما فينا مِن قابِلِيَّة للعلم والمعرفة، ونحن مخلوقون من ضَعْف وعرفنا أن صِفَة العلم فينا من صفات الكمال، وأن صِفَةَ الجَهْل وعَدمِ المعرفة من صفات النقص.

إذا لاحظنا كلَّ ذلك أَدْرَكْنا إدراكاً يقينيّاً جازماً أن الخالِقَ العظيمَ الذي أَتْقَنَ خَلْقَ الكَوْنَ وأحكمه، وخَلَقَ هذا الإنسانَ القابِلَ للعِلْم والمَعْرِفَة. لَا بُدَّ أن يكونَ هو بذاته عَليماً خبيراً، لا تَخْفَى عليه خافِيَةٌ، ولذلك صَدَرَ عنه هذا الاتقانُ البديعُ، والإحكامُ الكامِلُ، والدِقَّة البالِغَةُ، في كلِّ مخلوق من مخلوقاته.

الفرق بين علم الله وعلمنا: إن علمَ اللَّهِ سُبْحَانه لَيْسَ كَعِلْمِنا، فَعِلْمُنا قَليلٌ مَحْدُودٌ، ومُكْتَسَبٌ مِن بَعْدِ جَهْل، أما عِلْمُ اللَّهِ جَلّ وعَلاَ، فهو عِلْمٌ شامِلٌ، مُحيطٌ بِكُلّ شيء مِنَ المَوْجُودَاتِ أو غَيْرِ المَوْجُودَات، الممكن وُجُودُها أو المُسْتَحيل وُجُودُها، وهو غيرُ مُكتَسَب، ولا مَسْبُوق بِجَهْلٍ، فاللَّهُ سُبْحَانَه عليمٌ بكل شيءٍ من الأَزَل ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طـــه: 7] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [قّ: 16].

أسماءُ الله الحسنى التي تعود لمعنى صفة العلم: (العليمُ ـ اللطيف ـ الخبير ـ الشهيد ـ الحَسِيب ـ المُحْصِي ـ الواجد، السميع ـ البصير ـ الرقيب ـ المُهَيْمِن ـ الواسِعُ ـ المؤمِنُ).

أثر ملاحظة صِفَة العلم لله تعالى على الإنسان: إنّ مَن يُلاحِظُ صِفَةَ العِلْم لِلَّهِ تعالى ويتحقّقُ لديه أن الله تعالى مُحيطٌ بكل شيء عِلْماً، وأنَّ علمَ الله تعالى لا يَقْتَصِرُ على الظواهر، بل هو محيط بالبَواطِنِ والدقائِقِ، ومُبَاشِرٍ للخَفِيَّات كُلِّها، فيعلمُ الأسبابَ والمُسَبَّبَاتِ، ويَعْلَمُ العِلَلَ والمَعْلُولاَتِ، ويعلم السُبُلَ التي تسير فيها دقائق كلِّ شيءٍ، كما يعلم سبحانه السِرَّ وأَخْفَى، فَيَعْلَمُ خَلَجاتِ القلوبِ، وخطراتِ الأنفس، وما هو كائن وما سيكون، إن مَن يلاحِظُ ذلك يستطيع أن يُحدِّد لنفسه في الدنيا منهج سلوكه في حياته، لأنَّهُ مُحَاطٌ من خارجه ومن داخله بِعِلْمٍ عليم، مُحيطٍ بكلِّ شيء، لا يعزُبُ عن عِلْمِهِ مِثقال ذَرَّة في السمٰوات ولا في الأرض ولا في الأنفس، ولا أصغرَ مِن ذلك ولاَ أكبر، ويتحقّق بأمور ثلاثة:

1 ـ لا يخشى أن يَضيعَ عليه أيُّ عَمَلٍ مِن أَعْمالِ البِرّ يأتيه مهما صَغُرَ، ولو أخفاه وبالغ في إخفائه، ولو كان عاطِفَةً طيّبَة في النفْس، كإرادة الخير للآخرين أو نيَّة صالِحَة في القلب، ولو لم يظهرِ لذلك أثر في التنفيذ، إنه لا يخشى أن يَضيعَ عليه ثوابُ أيِّ عَمَلٍ يعمَلُه، لأنه يَعْلَمُ أنَّ اللَّهَ بِهِ عَليمٌ، وأنّ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرّة مِن خَيْرٍ، فلا بُدّ أن يرى أجْرَهُ وثوابَه.

2 ـ وهو لا يَسْتَهينُ بأيِّ عَمَلٍ مِن أعمال الشَرِّ مَهْمَا صَغُر، ومهما حاول إخفاءه وبالغ في ذلك، ولو كان عاطِفةً سَيِّئَةً، كالبُغضِ والحَسَدِ، أو نِيَّةٍ فاسدة خَبيثةٍ، ولو لم يظهر لها أثر في التنفيذ، إنه لا يستهين بذلك لأنه يعلمُ أنّ اللَّهَ به عَليمٌ، وأن مَن ﴿يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: 7، 8].

وجوب تصحيح النِيَّة والشعور بمراقبة الله سبحانه وتعالى في السِرّ والعلن:

3 ـ ثم يتَّضِحُ لديه الفرقُ الكَبيرُ بين عِلْمِ المَخْلوقاتِ وعِلْمِ اللَّهِ جَلّ وعلا، فيتصاغَرُ في نفسه، مهما بَلَغَ عِلْمُه مِن سِعَةٍ ونُضْجٍ وتحقيق، ويعلم أنّ عِلْمَهُ قليل بجانب علم الله ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، وأن اللَّهَ هو الذي عَلَّمه العِلْمَ بعد أن كان جاهِلاً بإعطائه القُدْرَةَ على التَعَلُّم وقوة الذاكِرَة والإدراك والاستنتاج في العقل وسائر أدواره ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴿٥﴾﴾ [العلق: 5] ولو شاء لنزعها منه فأصبح مجنوناً أو فاقد العقل أو الذاكرة، أو متخلّفاً عقلياً، وكم نشاهد من أُناسٍ فاقدي العقل جعل

اللَّهُ لنا فيهم عِبْرَة لنحمِدَ اللَّهَ على نِعْمَة العقل والعلم التي وَهَبنا إيّاها.

فعلى الإنسان العالِم بأي مَجالٍ من مجالات العلوم الدينية أو الدُنيوية ألا يَغْتَرَّ بسِعَةِ عِلْمِهِ، وألّا يرى لنفسه فضلاً على سائر الناس فيتكبَّرُ عليهم ويَزْدَريهِم وَيَحْتَقِرُهُمْ، ويَبْخَلُ بتعليمهم ونَقْلِ علمه إليهم كي لا يرفعَ من مستواهم، ولا يحتكر عِلْمَهُ الذي وهَبَهُ اللَّهِ إياهُ على نفسه فقط، فقد حَذَّرَ اللَّهُ ورسوله من مَغَبَّةِ هذا الأمر أشدَّ تحذير، قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ كَتَمَ عِلْماً يَعْلَمُهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَومَ القِيَامة بِلِجَامٍ مِن نار**» أخرجه أحمد. وليعلم الإنسان أن عِلْمَهُ محدودٌ مهما اتَّسَع، وأن عِلْمَ الله واسِعٌ لا حدّ له، وأنّ ما غاب عن الإنسان أكثرُ مما يعلمه، قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ يَدَّعِي في العِلْمِ مَعْرِفَةً حَفِظْتَ شيئاً وغابَتْ عَنكَ أَشْيَاءُ

وأَنَّ عِلْمَ الإنسان محدود بحدود حواسِّه المدرِكة أو استنتاجه العقلي، والإنسان يكتشف كلَّ يوم جديداً، فهو اليوم أعْلَمُ مِن أمس، وغداً أعْلَمَ منه اليوم وهكذا، بينما عِلْمِ اللَّهِ قديمٌ محيطٌ بالأشياء دون سبق خفاء، ويتناول كل ظاهر وباطن، ولا يخفى عليه شيء.

5 و 6 . السَمْعُ والبَصَرُ

تعريفهما: هما صِفتان أَزَلِيّتان قائمتان بذاته تعالى تتعلّقان بالموجودات تعلُّق إحاطة وانكِشافٍ. فالله سبحانه وتعالى يسمع كل شيء وكل حَرَكَة وسكون في الوجود، وليس عنده شيء بعيد بالنسبة له سبحانه فالكل له قريب ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قّ: 16]

فيعلم كُنْهَ الأشياء ويسمع صوتها، حتى إنّه يسمعُ دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء، في الليلة الظَلْماء، ويَسْمَعُ خَفَقانَ القلوب في حَنايا الخَلْقِ أجمعينَ، ولا يشغله سماع شيء عن شيء آخر، فلا تغيب عن سمعه هَمْسَةٌ وسط الضَّجيج، ولا تشتبه عليه لغة من اللغات، ولا يحتاج إلى أذن أو صماخ، ولا واسطة كالهواء، بل سمعه سمع إحاطة بالأشياء.

وكما أنّه يسمع كلّ شيء فإنه يُبْصِرُه ويراه رؤية شاملة، وبَصَرُهُ يَسْتَوْعِبُ الأشياءَ والمخلوقات ظاهِراً وباطِناً، وبَصَرُه لا يحتاج إلى واسطة كالنور والضياء أو مُكَبِّر، ولا إلى حدَقة وأجفان أو حاسة كغيره ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

دليلهما النقلي: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: 1] وقوله سبحانه لموسى وأخيه هارون عليهما السلام وقد أرسلهما إلى فِرْعون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: 46].

ومن السنة، قوله ﷺ لِلناس، وقد رفعوا أصواتهم بالتلبية والتكبير: «**اربَعُوا على أنْفُسِكم، فإنكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائِباً، تَدْعُون سَميعاً بصيراً**» أخرجه البخاري في التوحيد. و(اربعوا) أي: أَشْفِقُوا.

دليلهما العقلي: لو لم يَتَّصِفْ سبحانه وتعالى بالسمع والبصر، لاتَّصَفَ بأَضْدادِهما، وهي الصَمَمُ والعَمى، ولَلَزِمَ النقصُ في حَقِّه سُبْحانه، والنقصُ عليه مُحال لأنه مُنافٍ لكمال الألوهية فَثَبَتَ كَوْنُه تعالى سميعاً بَصيراً.

الفرق بين سمع الله وبصره وبين سمع البشر وبصرهم:

نلحظ أن الله سبحانه قد وهب البَشَرَ نعمة السمع والبصر، ولو شاء لسلبهما منهم كما هو الشأن عند الصمّ والعميان، فهما عند الإنسان مكتسبان بينما هما عند الله ذاتِيّان قديمتان قائمتان بذاته غير مكتسبتين، وهما عند الإنسان محدودتان بحدود لا يعود يسمع ويرى عندها، فكم من الأصوات والذبذبات موجودة في المكان الذي يوجد فيه الإنسان ولا يلتقطها، لأنه غير مؤهل بالأجهزة اللازمة لذلك، ولو أن الله مَنَحَهُ قُدْرَة التقاطها لما ارتاحَ أبداً، ولانفجرَ دماغه، ولم يتمتّع بطعم النوم أو الراحة أبداً، وهذه رحمةٌ من اللَّهِ به، بينما نجد بعض المخلوقات المَوْهُوبة آتاها الله قوّةً في السمع، فتسمع أدقّ الأصوات وتُشاهد مِنْ بَعيد أو في الظلام، وحتى هؤلاء فإن سمعهم وبصرهم يبقى محدوداً، بينما سَمْعُ اللَّهِ وبصره غيرُ محدود ولا يحتاج لشروط، فهو يسمع ويرى الأشياء كلّها في وقت واحد دون أن يَشْغَلَهُ شيءٌ عن شيءٍ، والإنسانُ لا يستطيع أن يركّز سمعه أو بصره على أمْرَيْن في وقت واحد معاً، وهذا دليل على ضعفه.

آثارهما في الإنسان: إنّ مَن تَحَقَّق لديه أنَّ الله ربَّ العالمين الخالق المَعْبُود عليمٌ بكل شيء سَمِيعٌ لا يغيب عن سَمْعِه صوتٌ ولا حديثُ نفس، بَصِيرٌ يرى كل شيء، ولا يغيبُ عن بصره أحد، فإنه يَشْعُرُ بأنه تحت رقابة اللَّهِ دوماً في جميع أحواله وأقواله وحركاته وسكناته، ومَن عَلِمَ أنه مُراقَب من الله الذي لا تخفى عليه خافية فإنه يخافه ويخشاه ويسْعى بكل جهده لتحسين حاله بين يدي مولاه، وعبادته على أكمل وجه، فيقوم بما طُلِبَ منه وأُمر به ويجتهد في

ذلك، ولا يقصِّر فيه أبداً، ويَتْرُك ما نُهي عنه، ولا يقترب من المعاصي والفواحش والآثام، ولا يتجرّأ على معصية ربّه الرقيب الحسيب المحصي المُبدىء المعيد، المحيي المميت، المنتقم الجبار، فلا يتجرّأ على ظُلْم أحد من الناس بسَرِقَةٍ أو أكلِ مالٍ بظلمٍ أو بغير حقٍّ أو بِنصْبٍ أو احتيال أو مُراوَغَةٍ أو تزويرٍ، أو على الاعتداء على أحدٍ في عِرْضِه أو ماله أو نفسه، أو غصب حقٍ من حقوقه، ولا على أذيَّة أي مخلوق من مخلوقات الله لأنه يعلم أن الله يسمع ويرى وهو قادِرٌ على الانتقام منه ومعاقبته؛ وفي المثل السائر:

«إذا دَعَتْكَ قُدْرَتُكَ إلى ظُلم الناس، فتذكر قُدرة اللَّهِ عَلَيْكَ».

إن مَن عَلِمَ بأن الله يراقِبُه في كل لحظة وأنه مُطَّلِعٌ عليه لا تخفى عليه خافية يحاسِبُ نفسه على كل أمر يصدر منه، ويسعى لتحسين صورته وعمله أمام ربّه، ويسعى لإصلاح قلبه وتطهيره من كل إثم أو خطيئة أو مرض، كحبّ الدنيا والشهوات والملذات، وأنانية النفس، وحسد الناس وبُغضهم والاستعلاء والتكبّر على الخَلْق، وإرادة الشرّ بهم وأذيّتهم، والكذب عليهم، ويُطَهّر قلبه من النفاق وإظهار الخير للناس، وإضمار السوء لهم، ولا يعود يُرائي الناس بأعماله، ويُخلصها لله تعالى، الذي يراه ويسمعه ويعلم ما في قلبه. ويلازم طريق الحقّ ويتّبع ما جاء به النبيّ ﷺ من عند الله من الهدى والحق والنور، ويحاسب نفسه على ما أسلفت في الماضي من عمل سيّء، فيستغفر الله ويسأله التوبة عما سلف، ويندم على ما مضى منه ويعزم على الاستقامة والإنابة إلى ربه، وفعل الطاعات، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: 52]

وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61] وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62، 63] وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33].

وفي حديث جبريل أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال: **«أَنْ تَعْبُدَ كأَنَّكَ تراهُ فإن لم تكن تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ»** (أخرجه البخاري ومسلم).

وقال ابنُ عطاءِ الله السكندري: (أفضل الطاعات مراقَبَةُ الحقِّ على دوامِ الأوقاتِ).

7 ـ صفة الكلام

تعريفها: هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى منزّهة عن التقديم والتأخير، تتعلّق بالواجبات والجائزات والمستحيلات تعلُّق دِلالَة، بخلاف العلم فإن تعلّقه بها تعلق انكشاف وإحاطة، ومِن كلامه ما أنزله في كتبه التي أوحى بها إلى أنبيائه بواسطة وحيه جبريل عليه السلام، ومنها التوراة والزبور والإنجيل ـ الغير محرّفة ـ والقرآن الكريم وهو آخر كتبه المنزلة.

دليلها النقلي: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿وَمَا

كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: 51] ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 6].

ومن السنَّة ما رواه الترمذي وحسَّنه قال رسولُ الله ﷺ: «**يقولُ اللَّهُ سبحانه وتعالى: مَن شَغَلَهُ القرآن وذِكْرِي عن مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ما أُعْطِي السائِلِينَ، وفَضْلُ كَلامِ اللَّهِ على سائِرِ الكلامِ كَفَضْلِهِ على خَلْقِهِ**». وما رواه البخاري في الصلاة أن رسول الله ﷺ خاطبه ربه جل وعلا ليلة المعراج، وفرض على أمّته الصلوات الخمس، فالله سبحانه وتعالى مُتكلِّم، وكلامه عند أهل السنة والجماعة يُطلق على الكلام النفسي القديم، بمعنى أنه صفة قائمة بذاته تعالى، كما يُطلق على الكلام اللفظي الحادث بمعنى أنه خَلَقَه وليس لأحد في أصل تركيبه كسب.

دليلها العقلي: لو لم يتّصف سبحانه بصفة الكلام لاتّصف بضدّها وهي البَكَمُ، وهو نَقْصٌ مُنافٍ لكمال الألوهية، تعالى اللَّهُ عن ذلك علواً كبيراً، لأن النَقْصَ عليه مستحيل بمقتضى دليلَيْ القدم والبقاء المتقدّمَيْن. وكذلك أجمعت الأمّة وتواتر نقل الأنبياء عليهم الصلاةَ والسلام أنه سبحانه وتعالى متكلّم مع القطع باستحالة التكلّم بدون ثبوت الكلام، وهذا القدر من الإجماع لا خلاف لأحد من المسلمين فيه.

من هم الذي كلّمهم الله؟ قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:

253] يعني آدمَ وموسَى ومحمداً ﷺ وسيُكلم الله المؤمنين يوم القيامة. وأما الكفار فلا يكلمهم قال تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174].

ما معنى أن عيسى كلمة الله؟ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: 171] قال المفسّرون في تفسير هذه الآية: أي إنما عو عبدٌ من عِبادِ الله، وخَلْقٌ مِن خَلْقِهِ، قال له كُنْ، فكَانَ، ورسولٌ مِنْ رُسُلِهِ ﴿**وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيَم**﴾ أي خَلَقَهُ بالكلمة (كُنْ)، وأرسل جبريلَ عليه السلام المَلَكَ المُوَكَّلَ بنفخ الأرواح في الأرحام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربّه ﷻ فكان عيسى بإذنه ﷻ، وكانت تلك النفخةُ التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت رَحِمَها بمنزلةِ لِقاحِ الأب والأم، والجميع مَخْلُوقٌ لله ﷻ، ولهذا قيل لِعيسَى إنه كلمةُ اللَّهِ وروحٌ منه؛ لأنه لم يكن له أبٌ تولَّدَ منه، وإنما هو ناشِىءٌ عن الكلمة التي قال له كن فكان، والروحُ التي أَرسل بها جبريلَ، قال تعالى مبيّناً ذلك في آية أخرى، ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: 75] وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: 59] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ

أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: 40] فهذا معنى كلمة الله. ومعنى قوله: ﴿وروحٌ منه﴾ أي مِنْ خَلْقِهِ ومِن عنده، وليست ﴿من﴾ للتبعيض كما يظن المشركون، ومثله قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13] وأُضيفت الروحُ إلى الله تعالى على وجه التشريف، كما أُضيفت الناقة إليه في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 73] وكما أضيف البيت إلى الله في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: 26].

ما هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه؟ قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: 35 ـ 37] فَسَّرتها الآيةُ الأخرى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23]. وروى السُّدِّيُّ عن ابن عباس في تفسيرها: قال آدم عليه السلام: يا ربِّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ قال له: بَلَى، قال: وَنَفَخْتَ فيَّ مِنْ رُوحِكَ؟ قيل له: بَلَى، قال: أرأيتَ إنْ تُبْتُ هَلْ أَنْت رَاجِعِي إلى الجَنَّة؟ قال: نعم.

الفرق بين كلام الله وكلام خلقه: كلامُ الله قائم بذاته أزلي، وكلام الخلق مُكتَسَبٌ من الله الخالِق، ولو شاء لم يمنَحْه إيّاه، كما نشاهد البُكْمَ الذين لا يتكلّمون، مِمَّا يستوجب على العبيد شكر مولاهم على هذه النعمة العظيمة، وكَلامُ الله بدون جارحة أو آلة، وكلامنا يحتاج لآلة كالحنجرة واللسان، ويحتاج لواسطة حتى تنتقل ذبذباته، وبدونها لا ينتقل، وكلمات الله لا حصر لها ولا عدّ ولا

تَنفَدَ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: 109]. وفَضْلُ كلام الله على سائر الكلام كَفَضْلِهِ على خلقه كما في حديث الترمذي، وفي الحديث الذي أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه: «**إذا أحبَّ أحدُكم أن يُحَدِّثَ ربَّهُ فليقرأ القرآن**».

وبعد أن انتهينا من صفات المعاني، نذكر الصفات المعنوية.

رابعاً ــ الصفات المعنوية

الصفات المعنوية سبعة، وهي كونه تعالى: قادراً، مريداً، عالماً، حيّاً، سميعاً، بصيراً، متكلّماً، وهذه الصفات تُعْرَفُ مع أدلتها ومتعلّقاتها من صفات المعاني المتقدّمة.

ويستحيل على الله تعالى إجمالاً كل نقص، وتفصيلاً عشرون صفة، وهي أضداد الصفات الواجبة، فيستحيل في مقابلة الوجود مثلاً العدم، وهكذا سائر الصفات.

ويجوز عليه تعالى فعل كل ممكنٍ كإيجاد إنسان ما أو إعدامه.

للهُ الخَلْقُ والأَمْرُ

الكون مخلوق لله وليس لأحد أن يتصرف بشيء منه الا بإذنه

بعد أن عَلِمْنا أن لهذا الكون خالقاً مالكاً مُدَبِّراً لشؤونه، يَجِب أن نعلم أن المِلْكَ يَسْتَلْزِمُ حَقَّ الانفراد بالتَّصرُّف، ولمّا كنا نحن البَشَرُ جُزْءاً من هذا المِلكِ، فليس من حَقِّ أحدٍ مِنَ البَشَرِ أن يَتَصَرَّف في مِلكِ اللَّهِ إلّا أن يَأْذَنَ اللَّه له بذلك التصرُّف.

فالأرضُ التي نسكنها مثلاً، مِلْكٌ لِلَّه تعالى، وهو الذي جعلنا مُسْتَخْلَفين فيها، نحرثها ونزرعها ونستعمل خيراتها، وهو الذي سلّطنا على حيازة أموالها، وليس لنا أن نتصرّف فيها إلا كما يأذن، وضمن الحدود التي يحدُّها. فلس لنا أن نذبح حيواناً من مخلوقاته إلا بإذنه فهو الذي يبيّن لنا ما يَحِلُّ لنا منه وما يحرم، وليس لنا أن نشرب شراباً إلا بأمره وإذنه ولا أن نسلك طريقاً ما أو نقوم بأي عمل أو تصرّف إلا وفق إذنه ومشيئته وإرادته لأن الملك ملكهُ والأَمْرَ أَمْرُهُ، والنَهْيَ نَهْيُهُ، ونحن عِبادٌ له فما علينا إلا طاعته.

فنحن إذن نَعيش في مِلْكِ اللَّهِ، ومُلْزَمُونَ بالأوامر التي يأمُرُنا بها، والنواهي التي ينهانا عنها، وليس لنا أن نتجاوز حدودنا، ولا أن نَتَعَدَّى أوامر خالقنا، وإلّا كُنا عُصَاةً مُعْتَدِينَ على حق مِلْكِ المالك، والمُعْتَدِي يُعَرِّض نفسه للعقوبة.

لله الخَلْقُ والأمر:

يقول الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54] وحيث إن الله هو خالقنا، ومِدُّنا باستمرار الوجود، ورازِقُنا بعطائه المحمود والمُنعِمُ علينا بجلائل النِعَم ودقائقها، والذي بيده نواصينا، مِلَكاً وتصرُّفاً، وحَياةً وموتاً، فهو الذي يملك تحديدَ طريقِ سُلُوكِنا في الحياة، فِعلاً وقولاً واعتِقاداً، وهو الذي بأمره يَحُدُّ من حرِّياتنا التي مَنَحَنا إيّاها، ويُقَيِّدُ من شهَوَاتِنا التي وهَبَنا إياها، وذلِك امتِحاناً لطاعَتِنا في عُبودِيَّتِنَا له، ورِعَايَةً لِمصالِحِنا.

ليس لأحد أن يُشَرِّعَ سوى الله:

ومن ثَمَّ فليس لنا أن نَحْكُم لأنفسنا بأي تشريع كالإباحَةِ أو التحريم أو الوُجوبِ أو سائِرِ الأحكام إلا أن نَعْلَمَ حُكمَ اللَّهِ علينا بها، وإلّا كنا مُشرِّعين على الله بِغَيْرِ علم ولا إذن منه، وليس لأحَدٍ مهما كان ذا مَنْزِلَةٍ في الدين أن يُشَرِّعَ مِنَ الدينَ ما لم يَأْذَنْ به الله، وكذلك ليس لأيَّة هَيْئة محليَّةٍ أو مُنظّمة دولية أو مجلس تشريعي أو تنفيذي أو أحد أن يُشَرِّع للعباد ما لم يأذَن به اللَّهُ الخالق، لأنَّ مَن له الخَلْقُ فله الأَمْرُ، وبِيَدِهِ وَحْدَهُ حقّ التصرُّف بملكه، وعلى المملوك أن يتحقّق بِوَصْفِ عُبُودِيَّتِهِ لمالِكِهِ بالحق، فيُطيعَه فيما أمر، ولا يَعْصيه فيما نهى. قال الله تعالى مُثْبِتاً أن الحكم له: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

[القصص: 70] وفي حكاية قول يوسف عليه السلام في دعوته لصاحِبَيه في السِجْنِ مُثبتاً لهما أنَّ لِلَّهِ الحُكْمُ قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: 39، 40] فليس لأَحَدٍ أن يَعْبُدَ عبادةً لم يأتِ بها حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ أَوْ إِذنٌ.

وفي التنديدِ بحُكْمِ غَيرِ الله، وفي بَيانِ كمالِ حُكْمِهِ في الحُسْنِ والعَدْلِ ورِعايَةِ المصالح، مِن غَيْرِ ظُلْمٍ ولا انحرافٍ عن الصِراطِ السَوِيِّ قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: 50].

وفي نَفْيِ الإيمان عَمَّن لا يُحَكِّمونَ شَرْعَ اللَّهِ ورسولَه في خِلافاتِهم التي تَجْري بينهم ثُمَّ يَقْبَلونَ حُكمَه بالرِضا والتَسْليم، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65] وحكمُ الرَّسُولِ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ؛ لأنه مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ.

الكونُ كلُّه مخلوقٌ لله خاضِعٌ له بالقهر

إذا نظرنا إلى الكون الفسيح، وجدنا أن كُلَّ شيء فيه خاضِعٌ لقوانين الخلق الرَّبَّاني وأنظمته التي أرادَ اللَّهُ لكونه أن يَسيرَ عليها، فما مِن شيءٍ يَسْتَطيعُ أن يخرُجَ عن أَنْظِمَةِ الخَلْقِ الربَّانيّ وقَوانينِهِ قَيْدَ شعَرَة؛ لأنه مُسَيَّرٌ بالقَهْرِ؛ دون أن يكونَ له إرادةٌ أو اختيار، فهذه

الكواكبُ والنُجُومُ في السماءِ، أيها يستطيعَ أن يَخْرُجَ عن مداره ويُغيِّرَ نِظامَهُ إلّا أن يشاءَ اللَّهُ له ذلك؟ وهذه أنظِمَةُ الحياةِ والموتِ وقوانينهما، من الذي يَستطيع أن يُغَيِّرَ شيئاً مِن هذه الأنظمة والقوانين إلا اللَّهَ الخالِقَ؟ وهذه الطبيعة مِن حولنا تخضع لله بما خَلَق فيها من أنظمة وقوانين على اختلافِ أوضاعِها وأحوالها وأجزائها ومُرَكّباتها، هل يستطيع أيُّ شيء منها الخروجَ على أنظمةِ اللَّهِ فيها وقوانينه؟ قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: 68] وقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: 83].

الإنسان خاضِعٌ بالقهر لقوانين الخلق الرباني

وهذا الإنسان، وهو جُزءٌ مِن هذا الكون الكبير، هو أيضاً خاضع بالقهر لقوانين الخلق الربَّاني وأنظمته، في حياته وموته، وصِحَّتِهِ ومرضه، ونُمُوِّه وضُمُورِهِ، وأكثرِ جوانب تكوينه، وقد منحه الله تعالى جانباً من الحرِّيَّة والاختيار في إرادته لأفعاله الجسميَّة والنفسية وذلك لَيَخْتَبِرَ فيه هذه الإرادة، ولِيُلْقِي عليه مَسْؤوليَّةَ هذا التَشْريفِ، بهذه المنحة الغالية، فهَل يخضعُ الإنسانُ لقوانين التكليف الربَّاني وأنظمته بالتسليم والطاعة في الحُدودِ التي مُنِحَ فيها الحرِّيَّة، كما خضع هو وسائِرُ الكون لقوانين الخلقِ الربّاني وأنظمته بالقهر والإجبار، فيما ليس له عليه سُلطة في قدرته ولا في إرادته، متذكراً دائماً هبة الله له، التي لو شاء لسَلَبَها فجعله كالجمادِ أو كالنبات، لا خِيرَةَ له في شيء، وهل يَرْبُط هذا الإنسان إرادته واختياره بإرادة اللَّهِ

واختياره، فيُحلُّ ما أحَلّ اللَّهُ، ويُحرِّمُ ما حَرَّمَ اللَّهُ، ويتَّبع شريعته لعباده، مُطَوِّعاً خيرته الذاتية لله، متجاوزاً نفسه وشهواته امتثالاً لأمرِ اللَّهِ؟ إنه إن فعل ذلك كان مؤمناً، وهذه هي علامة الإيمان وثمرته قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 36].

طاعة الله

هبة الإرادة والعقل والعلم والتمييز بين الخير والشر

لقد مَنَح اللَّهِ الإنسان نعمة الإرادة ووهَبَهُ نعمة العقل والعلم، وجعله في هٰذِهِ الدنيا في محيط ابتلاء واختبار لجانب الحرِّيَّة التي منحه اللَّهُ إيّاها، فلزم أن يكون للإنسان إلى جانب هذه الإرادة عقل يعي التكليف، ويستطيع التمييز بين الخير والشرّ، وكذلك خُلِقَ الإنسان ممنوحاً هذه الهبات، وهي:

1 ـ الإرادة التي لها جانبٌ مِن الحُرِّيّة.

2 ـ القُدرة الظاهرة على تنفيذ بعض الأفعال التي يريدها، فتوجد بخلق الله.

3 ـ العَقْل الذي فيه الاستعدادات العلمية، التي منها الاستعدادات التالية:

أ ـ الاستعداد لمعرفة الحق والباطل.

ب ـ الاستعداد لفهم التكليف، ووعي الأوامر والنواهي.

جـ ـ الاستعداد للتمييز بين الخير والشر، وإدراك الفضيلة والرذيلة.

شكرُ اللَّه على نِعَمِهِ واجبٌ

إذا نظرنا إلى الإنسان وما فيه مِن نِعَم ربَّانِيَّة عليه لا تُحْصَى، وَجَدنا أنّ عليه واجباً نحو ربّه تعالى الذي تَفَضّل عليه بالنعم، وهذا الواجب يتمثل بشكره تعالى على نِعَمِه، والشكرُ يتحقّق بالعِبَادَةِ والطاعَةِ. وهنا يَسْتَوقِفُنَا سُؤالان حول العبادة والطاعة.

السؤال الأول حول العبادة: كيف نَعْبُدُ اللَّهَ بالشكل الذي يَرْضاهُ، فلربّما حَدَّدنا لأنفُسِنا لوناً من ألوان العِبادة لِلَّهِ تعالى، فكان هذا اللونُ مِمّا لا يُرْضِي ربَّنا تعالى فلا نكون بذلك قد عبدناهُ بالشكلِ الذي يَرْضاهُ؟

فلو تُرِكَ الإنسانُ لنفسه بلا هدايةٍ مِنْ رَبِّه بإنزال الكتب وإرسال الرُسُل ليُحدِّدَ شكل عبادة ربّه، ويتصوّر الشكل الذي يُرضي ربّه في عِبادته، كأن يَدْفِنَ مثلاً جَسَده في الرمال الحارّة الملتهبة، أو يغمسه في الثلج في البرد القارس تعذيباً له، أو أن يُميتَ نفسه جوعاً وعطشاً، أو يَقْتُلَ نفسه بيده، أو يُلقِي بها في التَهلُكَة أو يتضمّخ بالنجاسات متأثّراً بفلسفات شاذة تقوم في ذهنه، أو أن ينغمس في ألوان شتّى من حظوظ النفس كاللهوِ واللعب والغِناء والرقص، أو أَذَى الناسِ والاحتيال عليهم بالمكر والخديعة والتزوير ونحو ذلك يزعم أن فيها عبادة لله تعالى، أو أن ننطلقِ بالإباحِيَّة المُطلقة لكل شيء، إلى غير ذلك، مما هو مُشاهدٌ اليوم في الأرض، فَيَخِلُّ مفهومُ العِبادة إلى معاني الفوضى والشهوة، والظلم والفساد، فكيف

لنا أن نعرف الشكل الذي يرضاه اللَّهُ في عبادتنا له؟

السؤال الثاني حول الطاعة: كيف لنا أن نعلمَ أوامرَ الله ونواهِيَه، ومنهجَ العمل الذي يرضاهُ لنا في حياتنا حتى نطيعَه في سلوكِ هذا المنهج، والسيرِ ضمنَ حدوده؟

ولو تُرِكَ الإنسان لنفسه يُحدِّدُ منهج حياته، لَسَنَّ لنفسه قوانين وأنظمة لا يرضاها الله له بحال، لما فيها من شرٍّ وفتن، وفوضى وخراب للعالم والأرض، كأن يحدِّد بالقُوَّة منهجاً ظالماً آثماً جائراً، لا حَقَّ فيه ولا عَدْلَ، مُتأثِّراً بالأغراض الخاصَّة والشهواتِ الشخصية الجامحة الشاذة كالشيوعية مثلاً، ثم كيف له إذا استطاع عقله أن يُدرِكَ بعض ما هو حَسَنٌ وقبيحٌ، ويُدرِك أن الحَسَن مِمّا يأمُرُ اللَّهُ به، وأن القبيح مما ينهى اللَّهُ عنه أن يُحيطَ عِلماً بجميع أوامِرِ الله ونواهيه وما أذَن به حتى يلتزمها ويطيعه فيها؟ ألا يُمكن أن تخالف مُدركات عقله أمْرَ اللَّهِ ونَهْيَهُ وإذْنَه، فكَيف له بمعرفة ذلك؟

الجواب لكلا السؤالين: واحِدٌ، وهو أن الإنسانَ عاجِزٌ عن أن يَعْلَمَ ذلك بنفسه ومدارك عقله، دونَ الرجوعِ إلى عِلْمِ آتٍ عَنِ اللَّهِ، لأنه ولا رَيْب سَيَخْبِطُ إذا تُرِكَ لنفسه خَبْطَ عَشْوَاءَ في ليل داجٍ مُظلم يَتَّبِعُ فيه الهوى والشهوات، والظلم والطغيان.

فلا بُدَّ إذن مِن طريق غير طريق ذات الإنسان، ومدارك عقله، يُعَرِّفُه شريعةَ اللَّهِ في عبادته ومناهج حياته وأنظمة دُنياهِ. وهذا الطريق قد حَدَّدَهُ اللَّهُ بالرسالات السماوية التي تَدارَكَ بها عَجْزَ الإنسان وضَعْفَهُ، فضلاً منه وكَرماً، ووضع فيها له أُسُساً مَقْبُولَةً لَدَى العُقول السليمةِ والفِطَرِ السَوِيَّةِ، ومُسَلَّمَةً لدى الطِباع المُسْتَقِيمة وأنزل له في

هذه الرسالات الربّانيّة ما يَضمَنُ سلامَة عبادته له، ووحدتها وفائدتها له، كما يضمن سلامة مناهج حياتِه، وأنظمة دنياه على ما يُحب ويرضى، مع ضمان مصالحه الدينوية والأخروية، وقد وضعه جل وعلا بهذه الشرائع في طريق الهداية الذاهبِ صُعُداً إلى قِمَّة السَعَادَةِ والمَجْدِ، ومِنْ ثَمَّ فلا حُكْمَ إلّا لله.

مُبَلِّغُو شرائعِ اللَّهِ: وقد بلَّغ هذه الشرائع الربَّانية رُسُلُ اللَّهِ المُصْطَفَيْنَ مِن الملائكة، يرسلهم ليَبَلِّغُوا رُسُلَ اللَّهِ المُصْطَفين من البَشَر، لِيُبَلِّغَ هؤلاءِ بِدَوْرِهم الناسَ شرائعَ اللَّهِ لِخَلْقِهِ، ولِيبيِّنُوا لهم كيف يعبدون الله، وكيف يطيعونه في أمره ونَهْيه، وكيف يتصرّفون فيما هم فيه مِن ملك اللَّهِ. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: 75].

خاتمة وتلخيص: ممّا سبق نستطيع أن نستخلص الحقائق التالية:

1 ـ الكونُ مخلوق لله ومَمْلُوكٌ له ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54].

2 ـ ليس لأَحَدٍ أن يتصرف في مِلكِ اللَّهِ إلّا بإذنه.

3 ـ الناسُ مخلوقون لله، فهم عبيده، وعليهم طاعته.

4 ـ الناسُ مُكلَّفُون بِعبادَةِ اللَّهِ شكراً على نعمائه.

5 ـ لا تَصِحُّ العِبَادَةُ إلّا بالشكل الذي يرضاهُ اللّه.

6 ـ لا يمكن للإنسان أن يعرف ما يرضاهُ اللّهَ للناس من أنظمة ومناهج إلا عن طريقه تعالى.

7 ـ لو تُرِكَ الناسُ لأنفسهم لانتحلوا ألواناً من العبادة لا يرضاها الله ولافترقوا فيها.

8 ـ لو تُرِكَ الناسُ لأنفسهم لظلموا وطَغَوْا في تحديد مناهج حياتهم وأنظمتها.

9 ـ لا يجوز للناس أن يَنسِبُوا شرائع إلى الله لم تأتِ من طريق صادقٍ عنه تعالى، أو يحكموا بأحكام لم يأذن بها. ولم تأت عنه جلّ وعلا.

10 ـ الملائكة هم رسُلُ اللّهِ للمصطَفْين من الرسل من البشر يبلغونهم شرائع الله ليبلغوها للبشر.

obeikandl.com